المسلم المعاصر
بين
المعية والمسؤولية

تأليف

د. سارة بنت عبد المحسن بن عبد الله بن جلوي

آل سعود

Dhs. ١٢

ⓒ سارة بنت عبد المحسن بن جلوي آل سعود، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

آل سعود، سارة بنت عبد المحسن بن جلوي

المسلم المعاصر بين المعية والمسؤولية. — الرياض

٢٤٨ص ؛ ١٤ × ٢١سم

ردمك ٥-٤٥٤-٢٠-٩٩٦٠

١ ـ الوعظ والإرشاد. أ ـ العنوان

ديوي ٢١١,١ ١٨/٣٦٥٦

رقم الإيداع : ١٨/٣٦٥٦

ردمك: ٥-٤٥٤-٢٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ/١٩٩٨م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

بسم الله الرحمن الرحيم

قَال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ
رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ
مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا
ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [المجادلة : ٧]

سُورَةَ المجادلة ٧

التقديم . .

قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(١) .

إن أول طريق الإصلاح الاجتماعي الإحساس بالحاجة إلى التغيير، وهذا يعني الشعور بالمسؤولية نحو الواقع المعاش بكل معطياته، وتناقضاته. لكن مجرد الشعور بالمسؤولية وحده غير كاف، إذ لابد من ترجمة هذا الشعور إلى أعمال تصنع الواقع الجديد.

وفي زماننا هذا نجد الغالبية العظمى من شعوبنا في العالم الإسلامي تعيش حياة عدم المبالاة رغم كل ما يفرزه الواقع اليومي من مغالطات، وتناقضات كثيرة.

إن المسلم الغيور يحاول تلمس منهاج الإصلاح ليعيد للمجتمع الإسلامي شيئاً من العافية، ونظراً إلى ضخامة هذه المهمة وخطورتها، فإنه يحاول أن يستحضر ويستنزل معية الله لتسدده إلى الصواب، وتعينه على عقبات الطريق.

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾(٢) .

(١) (سورة الرعد/ آية١١)
(٢)(سورة التوبة/ آية١٠٥).

مقدمـــة

إن رسوخ العقيدة الصحيحة في نفوس أفراد المجتمع الإسلامي، ووضوح مفهوماتها في أذهانهم، يحفظ سلامة المجتمع واستقراره، وأمنه، واستقامة أفراده على طريق الحق القويم، ويعين على تمثل العقيدة تمثلاً فعالاً في حياة المجتمع اليومية، فتكون بذلك بعيدة عن أزمة فقدان الثقة، والانهزامية، والتواكل.

وفي المقابل، فإن ضعف جذور العقيدة، وعدم وضوح مفهوماتها الرئيسة في تصور أفراد المجتمع الإسلامي لحقيقة الدين الصحيح، يؤدي حتماً إلى الانحراف الخطير في سلوك الأفراد، وحياتهم، ومن ثم بنية مجتمعهم، وما يترتب على ذلك من ابتعاد الأمة عن طريق المنهاج الرباني، وبالتالي ضعفها، وتمزق كيانها، وبعدها عن رحمة الله، ولن يشفع لها أنها أمة المصطفى ﷺ خير أمة أخرجت للناس، فسنة الله أن هذه أمور لا مجاملة فيها، ولا محاباة، قال تعالى ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾(١).

(١) - سورة البقرة: آية١٢٤.

فمن سنن الله الاجتماعية الثابتة أنه لا يغير حال قوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم قال الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (١).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (٢).

لقد ارتبط تغير أحوال المسلمين، ببعدهم عن فهم مقاصد دينهم، وتمثلهم لحقيقة العقيدة الصحيحة، ولا يعني هذا أن المسلمين لا يعرفون شروط الإيمان، وأركان الإسلام، أو أنهم يجهلون كتاب ربهم، وسنن نبيه المصطفى ﷺ.

ولكن البون شاسع، والنتيجة جد مختلفة، بين من يعرف ومن يفهم، ومن يعلم، ومن يستوعب ويطبق (٣).

---

(١) - سورة الرعد: آية ١١.

(٢) - سورة الأنفال: آية ٥٢.

(٣) - العلم لغة: نقيض الجهل، وقال علم علماً، وعلمت الشيء عرفته.
الوعي لغة: حفظ القلب الشيء يعيه وعياً، حفظه وفهمه وقبله وتدبره.
- الحفظ والتقدير، والفهم وسلامة الإدراك والتدبر.
انظر:
- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، باب الواو والياء، فصل الواو، ٦/ ٢٥٢٥.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، حرف الميم، =

وصدق المصطفى ﷺ في تصويره لهذه الحقيقة حين قال : (ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى منه)[1] .

ففي كلامه ﷺ إشارة في غاية الدقة والحكمة ، إلى أن القرب من مصدر التلقي ، والعلم بالأمر ، ومعرفته لا تغني شيئاً ، إن لم يتمم ذلك التلقي والعلم وعي وإدراك بحقيقة المطلوب ، وهذا ما نص عليه ﷺ حين قال : (نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها ، فرب

= فصل العين المهملة مادة (علم) م١٢/ ٤١٦ وما بعدها، حرف الواو والياء، فصل الواو (وعى) ٣٩٦-٣٩٧.

- المقري الفيومي، أحمد بن محمد بن علي؛ المصباح المنير، كتاب العين، مادة (علم) ٤٢٧، كتاب الواو (وعى)/ ٦٦٦.

- الفيروزابادي الشيرازي، مجد الدين محمد بن يعقوب؛ القاموس المحيط، باب الميم، فصل العين (علم) ٤/ ١٥٣، باب الواو والياء، فصل الواو (وعى) ٤/ ٤٠٠.

- الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس/ باب الميم فصل العين (علم) ٨/ ٤٠٥، باب الواو والياء، فصل الواو (وعى) ١٠/ ٣٩٢.

- المعجم الوسيط، باب العين (علم) ٢/ ٦٢٤، باب الواو (وعى) ٢/ ١٠٤٤.

(١) - فتح الباري، شرح صحيح البخاري، م١/ كتاب العلم٩، باب "رب مبلغ أوعى من سامع" ٧٦/ ١٥٧. م٣/ كتاب الحج "الخطبة أيام منى" ١٣٢/ ١٧٤١/ ٥٧٣، ٥٤٧، م١٠ كتاب الأضاحي ٥/ باب من قال "الأضحى يوم النحر" / ٥٥٥٠/ ٧/ ٨، كتاب الفتن، ٨/ باب "لاترجعوا بعدي"/ ٧٠٧٨/ ٢٦. م١٣، كتاب التوحيد، ٢٤/ باب "وجوه يومئذ" /٧٤٤٧/ ٢٤٢.

- صحيح مسلم، بشرح النووي/ كتاب القسامة/ م٦/ ١١/ ١٦٩ =

حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[١].

إن غياب الوعي الحقيقي لمقاصد العقيدة، وإساءة فهم مراميها، أصبح يشكل ظاهرة خطيرة، أدت إلى انحراف المسلمين عن الالتزام بالمنهاج الرباني، وسلوك طريقه المستقيم.

وإذا كانت هذه الظاهرة قد شملت نواحي مختلفة من الأسس العقدية الإسلامية، فإنا نجدها تبرز وبشكل واضح في ركيزتين أساسيتين من ركائز العقيدة الإسلامية تتمثل في: المعية أولاً، وفيما يرتبط بها من القيام بالمسؤولية ثانياً.

لذلك أقدمت على بحث هذا الموضوع بصورة أرجو أن أستطيع من خلالها توضيح المفهوم الإسلامي الصحيح لكل من المعية والمسؤولية، وبيان الخلل، أو الانحراف الذي

=وفيه "ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه".

- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن، السنن، كتاب المناسك، باب "في الخطبة يوم النحر" / ١٨٥٢/ ١/ ٤٧٩.
- ابن ماجه، أبو بكر عبد الله محمد بن يزيد القزويني، السنن، المقدمة ١٨، باب "من بلغ علماً" / ٢٣٣/ ١/ ٨٥.
- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد، المسند، م٥/ ٣٧، ٣٩، ٤٥، ٤٩، ٧٢.

(١) - الدارمي، السنن، المقدمة ٢٤، باب "الاقتداء بالعلماء"، ٢٣٢/ ١/ ٨٠.
انظر: -
- ابن ماجه، السنن، المقدمة ١٨/ باب "من بلغ علماً" ٢٣٠-٢٣٢-٢٣٦=

أصاب هذا المفهوم في المجتمع الإسلامي المعاصر وذلك وفق الخطوات التالية:

تمهيد

الفصل الأول: المعية الإلهية.

ويتكون من أربعة مباحث: -

المبحث الأول: معنى المعية وأقسامها.

المبحث الثاني: المعية العامة.

المبحث الثالث: المعية الخاصة.

المبحث الرابع: أسباب الخلل ومسبباته.

الفصل الثاني: المسؤولية الإنسانية.

ويتكون من أربعة مباحث: -

المبحث الأول: أقسام المسؤولية وشروطها.

المبحث الثاني: المسؤولية الشخصية (الفردية).

= ١/ ٨٤-٨٦، كتاب المناسك ٧٦، باب " الخطبة يوم النحر"، ١٠١٥/٣٠٥٦.

- أحمد، المسند، ٥/ ١٨٣.

- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، الجامع الصحيح (السنن)؛ كتاب العلم، ٧/ باب " الحث على تبليغ العلم" ٥٦٥٨/ ٥/ ٣٣-٣٤.

المبحث الثالث : المسؤولية الاجتماعية (العامة) .

المبحث الرابع : المسؤولية بين الإفراط والتفريط .

الفصل الثالث : علاقة المعية بالمسؤولية .

ويتكون من مبحثين :

المبحث الأول : الالتزام الأخلاقي .

المبحث الثاني : منهاج الإسلام في تربية الضمير الأخلاقي (الالتزام الداخلي) .

الخاتمه .

تمهيد

لقد ربطت العقيدة الإسلامية المسلم بربه بصورة لا مثيل لها في الديانات السماوية السابقة، حيث رسخت في أعماق المسلم أن صلته بربه دائمة، ومستمرة، ومباشرة، فحياة المسلم كلها من بدايتها إلى نهايتها متصلة بالله؛ لأنها منه، وإليه، وبه، وفيه، لاتنقطع لحظة واحدة.

فقيومية الله، وهيمنته، وتدبيره، وعلمه، وإرادته، تحيط الكون والإنسان بالرعاية الإلهية.

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾(1).

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(2).

تقرير إلهي عميق بحضور الله وشهوده مع كل إنسان. وهو ما اصطلح على تسميته **بالمعية الإلهية**. معية إلهية شاملة محيطة بكل شيء، وشهود رباني لا ينقطع، يحصي كل شيء،

(1) - سورة السجدة: آية ٥.
(2) - سورة المجادلة: آية ٧.

ليكون الحساب بعد ذلك، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١).

على أن هذه المعية الإلهية الشاملة، تضيق دائرتها، لتكون معية خاصة بالمؤمنين الصالحين، معية: الحب والرعاية، والرحمة، والمؤازارة، والنصر.

وهذه المعية الإلهية بشمولها وخصوصها، تقابلها مسؤولية إنسانية، لتكون الصلة أوثق، والعلاقة أقوى بين المسلم وربه.

ولكن أي اضطراب في استيعاب أبعاد هذه المعية، يترتب عليه قصور في تحمل المسؤولية، وأي تفريط في المسؤولية، يشير بوضوح إلى خلل في استحضار المعية الإلهية.

وهذا ما سنعالجه من خلال مباحث الفصول التالية:

الفصل الأول: المعية الإلهية بشقيها: العام، والخاص.

الفصل الثاني: المسؤولية الإنسانية، بأبعادها:

الشخصية، والاجتماعية، والدينية.

الفصل الثالث: العلاقة بين المعية والمسؤولية.

(١) - سورة المجادلة: آية ٦.

الفصل الأول
المعية الإلهية

ينشأ المسلم على الإيمان بوحدانية الله، وقدرته، وقربه، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، بيده مقادير كل شيء، وإليه منتهى كل شيء ومبدؤه.

فهو يتربى على الإيمان بمعية الله، ولكن الإيمان بالمعية شيء، واليقين بها وتمثلها شيء آخر. والفرق بين الإيمان بالمعية، واليقين بها هو موضوع مباحث هذا الفصل.

إن موضوع المعية ومفهومها، قد شغل علماء الإسلام وأئمتهم منذ القدم، وألفت فيها كتب ورسائل، في بيان حقيقتها، والرد على أهل الكلام والمتفلسفة من أهل البدع الذين حرفوا الكلم عن مواضعه وتطاولوا على الذات الإلهية، مما حدا بكثير من العلماء إلى الرد عليهم(١). رداً شافياً كافياً... مما لا يحتاج معه إلى بحث القضية من هذا الجانب من جديد.

(١) - انظر مثلاً: الإمام أحمد بن حنبل، الرد على الزنادقة والجهمية، شيخ الإسلام ابن تيميه، الفتاوي م٢، ٥، ١١: دره تعارض العقل والنقل م٦؛ ابن القيم الجوزيه، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة؛ الإمام الدارمي، الرد على الجهمية وغيرهم.

لكننا وبإذن الله سنركـز البـحث في هذه الدراسـة على المفهوم المعاصر للمعية، وما طرأ عليه من انحراف وسوء فهم، وسطحية تمثل.

وذلك من خلال مباحث أربعة هي:

المبحث الأول: معنى المعية وأقسامها.

المبحث الثاني: المعية العامة.

المبحث الثالث: المعية الخاصة.

المبحث الرابع: أسباب الخلل ومسبباته.

المبحث الأول

معنى المعية وأقسامها

أشرنا فيما سبق إلى أن الإنسان في هذه الحياة يحيا في إطار المعية الإلهية . . . لا تغيب عنه لحظة واحدة ؛ ولا تفارقه أبداً .

وقبل البدء في بحث هذه القضية العقدية ، والتعرف على فهم المسلمين المعاصرين لها ؛ لابد من التعرف على مضمون كلمة (معية) ، وبيان معناها اللغوي والاصطلاحي حتى يسهل ربط المعنى بالفهم المراد تقريره .

المعنى اللغوي :

المعية . . أصلها كلمة (مع) تضم الشيء إلى الشيء . وأصلها (معاً) وهي اسم على المختار معناه : الصحبة وتفيد الاجتماع ، وتدل على المصاحبة .

ولكلمة (مع) استعمالان :

الأول : أن تكون مضافة فتكون ظرفاً ثنائي اللفظ وتدل حينئذ على أحد معان ثلاثة :

١ - مكان الاجتماع ، نحو جلست معهم .

٢- زمان الاجتماع، نحو: جئتك مع العصر.

٣- مرادفة (عند)، نحو: جئت معهم- أي من عندهم.

الثاني: أن تكون غير مضافة، فتكون اسماً مقصوراً، وتنصب على الظرفية مثل: خرجنا معاً في زمان واحد، كنا معاً، في مكان واحد[1].

والخلاصة: كما يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية:

إن كلمة (مع) إذا أطلقت فليس ظاهرها إلا المقارنة المطلقة، والمصاحبة، وقرب إحدى الذاتين من الأخرى من غير وجوب مماسة، أو محاذاة ولا اختلاط.

وإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى، يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا.

(١) - انظر: الجوهري، الصحاح، باب العين، فصل الميم (مع)، ٣/ ١٢٨٦.
- ابن منظور، لسان العرب، كتاب العين، فصل الميم (مع) ٨/ ٣٤٠-٣٤١.
- المقري الفيومي، المصباح المنير، كتاب الميم (مع)، ٢/ ٥٧٦.
- الفيروزابادي، القاموس المحيط، باب العين فصل الميم، ٣/ ٨٥.
- الزبيدي، تاج العروس، باب العين، فصل الميم، ٥/ ٥١٣-٥١٤.
- المعجم الوسيط، باب الميم، ٢/ ٨٧٦.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، كتاب الميم/ ٤٧٠.

وكلمة (مع) . . يختلف حكمها باختلاف مقتضاها.

فتارة تقتضي: العلم، والشهادة والاطلاع . . نحو قوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، وتارة: النصر والتأييد كما في قوله تعالى لموسى وهارون ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾(سورة طه: آية٤٦)[(١)].

ومثل هذا اللفظ الذي يختلف مقتضاه وحكمه باختلاف القرائن والأحوال مع اتفاق أصل معناه يسميه بعض الناس: مشككاً لتشكك المستمع فيه.

هل هو: من قبيل المشترك الذي اتحد لفظه ومعناه نظراً إلى أصل المعنى.

والمحققون يذهبون إلى أنها من المتواطئ[(٢)].

اصطلاحاً:

إن الله مع العباد عموماً بعلمه، ومع أوليائه بالنصر، والتأييد، والكفاية، وهو قريب مجيب. فالله تعالى عالم

(١) - ابن تيميه، مجموع الفتاوى، ٥/١٠٣-١٠٥، ٤٩.
(٢) - المرجع السابق، ٥/ ١٠٥.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، كتاب الميم، باب (مع) ٢٨١، ٥٦٢-٥٦٣.
- محمد بن عثيمين، رسائل في العقيدة، ٧٥.

بعباده وهو معهم أينما كانوا وعلمه يهم من لوازم المعية[1].

ومن خلال فهم المعنى اللغوي، والمعنى الشرعي والاصطلاحي، قسم السلف المعية حسب مقتضياتها وفق استعمال القرآن والسنة لها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميه:

(فلفظ المعية استعمل في الكتاب والسنة في مواضع، يقتضي في كل موضع أموراً لا يقتضيها في الموضع الآخر، فإما أن تختلف دلالتها بحسب الموضع، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها وإن امتاز كل موضع بخاصيته)[2].

والمعية باختلاف دلالتها ومقتضياتها تندرج تحت قسمين اثنين لا ثالث لهما:

القسم الأول: المعية العامة.

القسم الثاني: المعية الخاصة.

والتي سنعقد لكل قسم منهما مبحثاً خاصاً.

(١) - ابن تيمية، الفتاوي، ٥/ ٢٣١، ٤٩٥-٤٩٩.
(٢) - المصدر السابق، ٥/ ١٠٤.

المبحث الثاني

المعية العامة

عندما خلق الله جل وعلا الخلق، لم يتركهم هملاً، أو يتخلى عنهم كما زعمت الفلسفات الإغريقية، والحديثة.. [1] -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-.

لكنه سبحانه وتعالى قد أحاط الكون ومخلوقاته بالرعاية والعناية، والتدبير والحفظ، والسلطان؛ فكان مع خلقه بعلمه وإحاطته. برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، هو معهم شهيد عليهم، يرقب أعمالهم، حيثما كانوا، لا يغيبون عن سمعه، ولا يختفون عن بصره.. يحصي أعمالهم، ويطلع على سرائرهم، قال الله تبارك وتعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [2].

وقال عز من قائل سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي

(١) - لمزيد بسط حول الموضوع انظر كتابنا: قضية العناية والمصادفة في الفكر الغربي المعاصر دراسة نقدية في ضوء الإسلام.

(٢) - سورة الحديد: آية ٤.

السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١).

هذا النوع من المعية، هو ما اصطلح على تسميته بالمعية العامة، والمعية العامة شاملة للكون بما فيه، ومن فيه كله. هي معية الحب، والرعاية، والرحمة، والعلم، والقدرة والإدراك. فالله مع الجميع بعلمه وقدرته وإرادته، وهذه من الصفات الذاتية لله تبارك وتعالى.

وقد استدل السلف رضوان الله عليهم من الآيتين السابقتين على أن الله تبارك وتعالى مع خلقه بعلمه، وأن هذه المعية تقتضي أنه تبارك وتعالى مطلع على خلقه، شهيد عليهم، مهيمن عالم بهم، فالله تبارك وتعالى، قد نص في الآيتين السابقتين على تقرير علمه الشامل المحيط بكل شيء، صغيراً كان أم كبيراً، ظاهراً أم خفياً، معلوماً أم مجهولاً.

قال الإمام أحمد بن حنبل فيما نقله عنه ابن تيميه رحمهما الله:

---

(١) سورة المجادلة: آية ٧.

(حينما سئل عن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ قال: علمه، عالم الغيب والشهادة محيط بكل شيء، شاهد، علام الغيوب، يعلم الغيب، ربنا على العرش بلا حد أو صفة، وسع كرسيه السموات والأرض)[1].

وذكر الإمام أحمد في كتابه (الرد على الزنادقة والجهمية) تعليقاً على هاتين الآيتين السابقتين مبيناً أن الله مع خلقه بعلمه فيهم[2].

وذكر في موضع آخر فقال: (هو إله من في السموات وإله من في الأرض، وهو على العرش وقد أحاط علمه بما دون العرش، ولا يخلو من علم الله مكان، ولا يكون علم الله في مكان دون مكان فذلك قوله ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾(الطلاق - ١٢)[3].

(١) - الفتاوى، ٥/ ٤٩٦، البيهقي، كتاب الأسماء والصفات، ٢/ ٣٤٠-٣٤٣.
(٢) - الرد على الزنادقة والجهمية لإمام أهل السنة أحمد بن حنبل ضمن كتاب (عقائد السلف) لعلي سامي النشار، وعمار جمعي الطالبي، ٩٥ وما بعدها.
(٣) - المصدر السابق، ٩٤.

ويقول الإمام الدارمي في شرح قوله تعالى ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة﴾ الآية (إنما يعني أنه حاضر كل نجوى ومع كل أحد من فوق العرش بعلمه، لأن علمه بهم محيط وبصره فيهم نافذ. ولا يحجبه شيء عن علمه وبصره، ولا يتوارون منه بشيء، وهو بكماله فوق العرش بائن من خلقه ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ وأقرب إلى أحدهم من فوق العرش من حبل الوريد، قادر على أن يكون له ذلك، لأنه لا يبعد عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض، وهو كذلك رابعهم وخامسهم)[1].

بهذه الدقة والعمق، فهم السلف معنى المعية العامة، ومن ثم كان لها في حياتهم أعمق الأثر.. حيث ظهر استشعارهم لمعية الله لهم على تصرفاتهم جميعها، فكان أن سطروا لنا أروع صحائف التأريخ، ودانت لهم الأرض، وملكوا الدنيا بصدق إيمانهم، وعمق فهمهم لمضامين دينهم وسلامة عقيدتهم من الشوائب، وبقيت مصنفاتهم منهلاً عذباً يستقي منه الخلف إلى ما شاء الله.

(١) - كتاب الرد على الجهمية للإمام أبي سعيد الدارمي، (عقائد السلف)، علي النشار، عمار جمعي الطالبي، ٢٦٨-٢٦٩.

فإذا ما انتقلنا إلى مسلمي هذا العصر، وتأملنا موقفهم من هذه المعية الإلهية، ومدى فهمهم لها . . . وجدنا البون شاسعاً بين الفهم والتطبيق.

فالمسلم المعاصر يتربى على تعلم وحفظ أصول عقيدته، وأن الله معه في كل زمان ومكان، وأن عليه أن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه، فإن الله يراه[1] كما يتربى على غير ذلك من أصول دينه. وأسس عقيدته، بل إن كثيراً من المسلمين يحفظ كتاب الله عن ظهر قلب كله أو بعضه، ولكنه للأسف حفظ لم يتجاوز حدود اللسان، ولا يتعدى حروف الكلمة، وسوء الفهم هذا -لحقيقة التعامل مع القرآن- أدى إلى سوء التطبيق، ومن ثم ساق كثيراً من المسلمين إلى الانحراف عن منهاج الله، في معظم شؤون حياتهم، الخاصة منها، والعامة.

والانحراف عن المنهاج الرباني، قد اتخذ في هذا العصر صوراً مختلفة، منها:

(١) - أصله حديث، عن الرسول ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان والإسلام، والإحسان. . وهو حديث يدرس للطلاب المسلمين في مراحل التعليم المختلفة منذ المرحلة الابتدائية، أو ماقبلها، وحتى الجامعة، يراجع الحديث في فتح الباري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل ٣٧، م١/ ١١٤.

ماهو نفسي . . ومنها ماهو عملي .

وإن كانت مظاهر الانحراف النفسية والعملية، قد ظهرت بصور مختلفة ومتباينة في حياة المسلم المعاصر، إلا أن تركيزنا هنا سيقتصر على ما يتعلق منها بمفهوم المعية موضوع الدراسة .

أولاً : الانحرافات النفسية[1]

إن سعادة الإنسان -المؤمن- واستقراره وسكينته، تنبع من داخله، من صدق إيمانه بربه، ويقينه من معية الله له .

أما مظاهر الحياة المادية كلها، فلا تستطيع وحدها أن تهيء له لحظة سكينة واحدة، لأنها - السعادة- أمر داخلي، لا يتحصل بالمظاهر الخارجية[2] . وهذه حقيقة يقينة عبرت عنها كلمات العبد الصالح في قوله :

إلهي ماذا وجد من فقدك، وماذا فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي دونك بدلاً، وخسر من بغى عنك حولاً .

(١) ما نقصده بالنفسية : هو الأفكار، والمشاعر، والأحاسيس النفسية، أي ما يدور في داخل الإنسان، مما قد لا يفصح عنه الإنسان، ولا يظهر على تصرفاته العملية، ومظهره الخارجي .

(٢) انظر كتابنا : قضية العناية والمصادفة، التعقيب على الوجودية ٥٨٧ وما بعدها .

لأجل هذا نجد أن الإسلام بتعاليمه كلها عني ببناء الإنسان داخلياً، وتزكية قلبه، لا يقصد بهذا أنه أهمل جوانب الإنسان الأخرى، ولكن صلاح الداخل واستقراره يثمر صلاح الإنسان كله، إذ لابد أن تبرز مظاهر ذلك في السلوك والتصرفات الخارجية.

«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[١].

وهذا ماربى عليه رسول الله ﷺ جيل الإسلام الأول، حيث كان يعلمهم الإيمان الحقيقي، قبل تعلم القرآن[٢].

ومع أن الإيمان بالله، والإيمان بمعيته من الأسس الأولى التي يتربى عليها المسلم، إلا أننا نجد بين مسلمي هذا العصر

---

(١) حديث شريف أخرجه البخاري، فتح الباري كتاب الإيمان٢، باب " من استبرأ المدينة، ٣٩/ ١/ ١٢٦، مسلم، م٦، كتاب المسافاة، ج١١، باب " أخذ الحلال وترك الشبهات " ٢٧-٢٨.
- أحمد، المسند ٢/ ٣١٥، ٤/ ٢٧٠-٢٧٤.
- ابن ماجه، السنن، م٢، كتاب الفتن، باب الوقوف عند الشبهات ١٤/ ٢٩٨٥٤/ ١٣١٨-١٣١٩.
- الدارمي، السنن، م٢، كتاب البيوع١٨، ١ باب " في الحلال والحرام"، ٢٤٣٦/ ٦٩٥.

(٢) قال جندب بن عبد الله: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاوره فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيماناً، ابن ماجه، السنن، المقدمة، باب الإيمان ٩، ٦١/ ١/ ٢٣.

من يفتقد هذه الأسس الإيمانية، فتراه يؤدي العبادات ويعيش الحياة الإسلامية بمظاهرها كلها، ويلتزم بالأخلاق والقيم الإيمانية، بحيث يوحي ظاهرة بأنه يحيا الحقيقة الإيمانية بأبعادها كلها، ولكن لو تجاوزنا ملامحه الخارجية إلى عقله وقلبه، لوجدناه يعيش مأساة إيمانية يفتقد فيها الإحساس بمعية الله له، فتراه يصطلي بنيران الوحدة، والوحشة حتى وإن عاش حياة اجتماعية حافلة . . تقتله لحظات الشك، والتناقض، والخوف والعجز عن البوح، أو التصريح، لخوفه من أن يتهم في دينه، أو يرمى بالإلحاد، وفي الوقت ذاته هو عاجز عن الصمود تحت وطأة الصراع الذي يشتد يوماً بعد يوم في داخله وهو صراع مرير أليم، لا يعرفه إلا من ذاق عذابه . . صراع بين إيمانه الذي تربى عليه، وعجزه عن استشعار معية الله له. وأمام الخوف والعجز، وتخلخل الأسس الإيمانية ينهزم البعض ويصاب بأزمات نفسية حادة، قد تقضي عليه، فينسحب من حياة المجتمع، ويؤثر الوحدة، والاستسلام، ويترقب لحظات النهاية بشوق وشغف، لأنه يظن في الموت راحة له، وخلاصاً من عذابات لم يعد يقوى على مواجهتها، أو تحملها، لأن مأساته في أساس وجوده

-إيمانه بربه- وفي لحظات يأسة وانهزاميته قد يجد الشجاعة لكي ينهي حياته بالانتحار.

وما ذلك إلا أنه لم يجد من يفهم مأساته، ويقدر عذاباته، ويأخذ بيده إلى طريق الإيمان الحقيقي دون أن يتهمه بالكفر والإلحاد.

وفي المقابل نجد البعض الآخر، تتاح له هذه الفرصة، فيجد الشجاعة على التصريح بما يجول في داخله، آملاً بأن يجد الطريق، كتلك الفتاة التي كتبت لي ذات يوم قائلة:

(إن يسر الله لي أريد أن نتحدث حول معية الله، هل تذكرين كان هذا سؤالي، أو طلبي بمعنى أصح في جلستنا في الكلية، كيف يكون الله معي، كيف أشعر بأنه يسكن قلبي يملأ نفسي؟.

مؤخراً أصبحت أشعر بالوحدة، وحدة قاتلة، كآبة، وحشة، الوحدة تمزقني فأبكي - لأنني هنالك لا أملك سوى هذا - أبكي لأن جسدي في هذه اللحظة أشبه بالمحرقة- وهذا لا يهمني هناك كثيراً- وأبكي لأني أشعر بالوحدة، حتى وأنا أنادي يا الله، يا رحمن، أشعر بالوحدة، وأن الله

ليس معي، قد تقولين هذا سوء ظن، فأقول لك: لكن هذا حالي الآن، قد تقولين مثل الجميع أنت ضعيفة، جاهدي نفسك، أغلقي باب الشيطان، فأقول لك لن أخدع نفسي، هذا ما أفكر به، هذا ما أعيشه كل ليلة، فلا أجد سوى أن أفزع لـ (جلال) الصلاة[1] ألتحف به، وهذا جلالي الذي يغطيني وأنا أقف بين يدي ربي، فلعلي أستطيع أن أستمد منه بعض الراحة...)[2].

كلمات عفوية صادقة، تعكس عذابات المؤمن، إذا اعترى إيمانه أمر ما.. وبات يتجرع غصص عذابات نفسية لا تستكين، تقلبه على جمر القلق والاضطراب، وتشوي قلبه بجحيم لا ينطفئ، وتجعله كقول الشاعر:

كريشة في مهب الريح طائرة

لا تستقر على حال من القلق

بل إن حالته أشد من ذلك، إنه حقاً في معيشة ضنك،

(١) جلال الصلاة: هو الخمار الذي ترتديه المرأة عند الصلاة لتستتر به شعرها وجسدها.

(٢) نص حرفي، من رسالة بعثت بها إليّ فتاة في مقتبل العمر تكاد تحترق بنيران عذابات لا يعلم مداها إلا الله وقد سبق هذه الرسالة حوارات متعددة طوال عام دراسي.

وضنك المؤمن أصلاً في هذه الحالة يفوق بكثير ضنك من لم يذق طعم الإيمان، والأصل في ذلك أن المؤمن يعرف أن له خالقاً، مدبراً قادراً، بيده كل شيء، يعلم أن الإيمان الحقيقي يوسع القلب، والنفس، والحياة، ويجعل صاحبه على صلة بالوجود كله، فنور الله في قلبه، يملأ ضياؤه الدنيا وما فيها، فلا يبقى في قلبه ظلمة، ولا في نفسه ظلمة، ولا في حياته ظلمة، إنه يعلم ذلك كله يقيناً، لكنه يعجز عن الوصول إليه، لذا فإن عذابه أعظم، وقلقه أكبر، ووحدته أوحش، إنه كالظمآن الذي يرى الماء ولا يستطيع إليه وصولاً.

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ

والماء فوق ظهرها محمول

إنه يعرف الإيمان، ويرى طريقه.. ولكن..

أي لكن هي؟ إنها السجن الذي يحول بينه وبين السعادة والراحة والطمأنينة والحياة، وإن كان في مركز دائرتها.

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن: كيف يصل المؤمن الذي تربى على الإيمان، ونشأ على هدي الكتاب والسنة إلى

هذه الحالة؟

الإجابة عن مثل هذا السؤال ليست بالأمر الهين، فلو كان الأمر متعلقاً بغير المؤمن أصلاً لسهلت إجابته، لأن غير المؤمن، لا يعرف له رباً، ولا يؤمن بوجوده، وبالتالي فشعوره بالقلق، والوحشة، والوحدة، أمر طبيعي، لأن مثل هذا الإنسان قد تنكر لفطرته التي فطر عليها وهي الإيمان بالله؛ فغرق في دوامة فراغ روحي وقلبي لا تملؤه فلسفات الأرض جميعها[1] قال الله تبارك وتعالى ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[2].

ولكن كيف يعيش في ضنك نفسي، ووحدة ووحشة من آمن بالله رباً وبمحمد ﷺ رسولاً ونبياً، ووقف بين يدي الله راكعاً وساجداً يناجي ربه ويبثه أحزان قلبه؟!.

كيف يشعر بالوحدة والقلق من يقرأ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[3].

(١) لمزيد تفصيل هذه القضية، راجع كتابنا: قضية العناية والمصادفة في الفكر الغربي المعاصر.. دراسة نقدية في ضوء الإسلام.
(٢) سورة طه: آية ١٢٣-١٢٤.
(٣) سورة الحديد: آية ٤.

كيف يعجز قلب آمن بالله عن أن يتمثل حقيقة هذا القرب وهذه المعية؟ وكيف لا يرتعش ولا يهتز لهذا الحضور الإلهي الجليل؟

هذه التساؤلات وغيرها سنبين الإجابة عنها في المباحث القادمة بإذن الله.

ثانياً: الانحرافات العملية:

إن قلب المؤمن متى ما استشعر معية الله له، وتذوق حلاوة قربه، فلا بد له من أن يرتفع بذلك الشعور والتذوق عن كل دنس وكل إسفاف، لأنه يعيش في جو مشبع بالحياء والحذر والخشية، والحرج من أن يراه ربه في موضع أو في حال لا يرتضيه.

ومثل هذه الأحاسيس كفيلة بأن تحمي القلب من الانصراف إلى غير الله، والجوارح بأن تقدم على فعل ما يسخط الله.

فالمؤمن هنا في كنف مراقبة نفسية وقلبية، تضبط خطاه على طريق الله سراً وعلانية، قلباً وقالباً وعملاً، حركة وسكوناً. فهو يؤمن بأنه في ملك ربه الذي لا تخفى عليه خافية

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ (١).

وإن كل حركة وسكنة وخلجة عاشها اليوم، ستعرض عليه بين يدي ربه غداً﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (٢).

إن الإيمان بمعية الله وعلمه، وما يترتب عليه من مراقبة ذاتية كافية لأن تعصم الإنسان من الزلل وإن غاب الرقيب، لأن رقابته منبثقة من داخله، فالإنسان يوجه من داخل نفسه، من باطنه لا من ظاهره، ومتى ما ارتبط المؤمن بربه، وجعل حياته كلها موصولة به فقد ارتبط بالمثل الأعلى، وعمل له، وسعى إليه، وكان همه أن يتخلق بأخلاق إيمانه ويتعامل مع نفسه، ومجتمعه في ظاهره وباطنه بمفهوم: الله معي. يراني ويعلم حالي، لا يخفى عليه شيء من أمري. ومن ثم يستقيم باطنه، وتصلح نيته، وينضبط سلوكه، خضوعاً لسلطان إيمانه بربه لا لسلطان الرقيب عليه.. وهذه المعاني الربانية السامية تصورها القصة التالية:

روي أن أحد المشايخ كان له تلميذ شاب، حظي منه بالتكريم والتقديم، فتساءل أصحاب هذا الشيخ عن السر في تكريمه وتقديمه لهذا الشاب عليهم وهم شيوخ. فدعا الشيخ

(١) سورة آل عمران: آية ٥.
(٢) سورة الحاقة: آية ١٨.

بعدد من الطيور، وناول كل واحد منهم طائراً وسكيناً ومن بينهم هذا الشاب. وقال لهم: ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه فيه أحد. فرجع كل واحد منهم بطائره مذبوحاً، إلا ذلك الشاب عاد وطائره في يده حي. فقال له الشيخ: مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك؟ فأجاب الشاب: لم أجد موضعاً لا يراني فيه أحد، إذ الله مطلع علي في كل مكان[١]. إن ما ترمي إليه هذه الحكاية من معاني، هو وصول الإنسان إلى تحقيق أفضل مراتب الإيمان وهي الشعور بمعية الله في كل حين وعلى كل حال، وما تستلزمه هذه المعية من استقامة قلبية، ونفسية، وسلوكية عملية.

وهذا ما عناه النبي ﷺ حين قال: - «إن من أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان»[٢].

---

(١) الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، م٤، ج١٥/ ٢٧٤٥.

(٢) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، كتاب الأسماء والصفات، باب ما جاء في قوله الله عز وجل ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ ٢/ ٣٤٠ (٩٠٧)، وأخرجه الطبراني في (الكبير، والأوسط)؛ والحديث قد ضعف من حيث السند، إلا أن متنه صحيح المعنى لأن فيه تحقيق الإيمان الكامل بأبعاده كلها التي أشار إليها حديث سؤال جبريل عليه السلام للرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان الذي هو أعلى درجات الإيمان «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وهذا مقام الإحسان والمراقبة والعلم بأن الله معه حيث كان، مطلع عليه، رقيب على أفعاله وأقواله وسريرته.

إن هذه المرتبة الإيمانية العليا، هي التي تجعل المؤمن يرى الله في خلجات نفسه، ونبضات قلبه، وحركات جوارحه، وتربي فيه ضميراً حياً حساساً، يحاسب صاحبه قبل أن يقدم على أي فكرة، أو عمل. . لماذا هذا؟ وما هذا؟ ولمن هذا؟ وكيف هذا. . ؟ هل هو للناس؟ أو أنه لرب الناس؟!.

إن هذه المرتبة الإيمانية العليا التي تجسدت في جيل الإسلام الأول الذين سطروا لنا تأريخاً مشرفاً، تجسد فيه الإيمان واقعاً يمشي على الأرض.

وكما قالت ابنة بائعة اللبن لأمها حين أمرتها أن تمزج اللبن بالماء وأن أحداً لا يراها (إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فإن رب أمير المؤمين يرانا).

هذا الإدراك الواعي لحقيقة المعية الإلهية. . وما يستلزمه ذلك من صدق وإخلاص قلبي، وعملي. . قد وهت عراه في قلوب كثير من مسلمي هذا العصر. . وكادت صلتهم بربهم تنقطع، حتى وإن وقفوا بين يديه خمس مرات في اليوم، لماذا. . . ؟

لأن الانحراف قد وقع في المفهومات العملية للإيمان. .

وهو مفهوم العبادة، التي قصرت على مجرد أداء الشعائر التعبدية، دون أن يكون لها أي تأثير في ممارسة حياتهم اليومية؛ بل إن تلك الشعائر التعبدية نفسها، أفرغت تماماً من مضامينها الإيمانية، ومقاصدها التربوية وأصبحت حركات ظاهرية مجردة، يؤديها المسلم بحكم العادة والتقليد، ولا يستشعر أبعادها الإيمانية، فانفصلت العقيدة عن العبادات، عن المعاملات، عن الأخلاق، عن الفكر، عن العمل، عن العلم، عن غيرها من شؤون الحياة الشخصية، والاجتماعية. فنجد المسلم المعاصر، يقر بالتوحيد، ويقرأ القرآن، ويؤدي الصلاة، ويصوم، ويحج، ويعتمر، ويزكي، ويتصدق؛ بل وقد يتجاوز دائرة الفرائض المحدودة إلى عالم التطوع الرحب، ومع ذلك لا يتورع عن أن يكذب في حديثه، ويزور أقواله، وينافق في سلوكه، ويغش في عمله، ويخدع في تعامله، ويخون في أمانته، ويظلم في مواقفه، ويجور في حكمه، ويدلس في علمه، وقد تعلق قلبه بالدنيا، وتحولت عبوديته لنفسه وللناس، ونصب خوفه ومراقبته للناس؛ بل أصبح الناس هم غاية همه، ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ (١).

(١) سورة النساء: آية ١٠٨.

وما ذلك إلا لأنه – المسلم المعاصر – قد فهم عقديته فهماً جزئياً مبتوراً قاصراً، لا يستوعب حياته بمجالاتها كلها[1].

وقد أصبح دينه جزءاً من كل، ولم يعد أصلاً يقوم عليه الكل.

إن هذه الانحرافات العملية، التي تقابلنا في كل حين وموقف، تؤكد لنا الفصام الحاد الذي وقع بين العقيدة والحياة، عند كثير من مسلمي هذا العصر. وإن الإيمان بمعية الله، وأنه معنا في كل حين، يرانا على كل حال، يعلم خائنة أعيننا، وما تخفي صدورنا لم يعد له ذلك الوجود الحقيقي في نفوس المسلمين، وقلوبهم، كما أن مفهوم العبادة على شموله قد انحصر في أداة الشعائر التعبدية، من أداها فقد أدى ما عليه من تكاليف أمام الله، فضلاً عما أصاب الشعائر التعبدية ذاتها عن عزلة كاملة، وانفصال عن واقع الحياة، كأنها شيء لا مقتضى له في الحياة الدنيا، ولا تأثير في سلوك البشر. وإلا فكيف يرائي الناس من يتلو قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2].

(١) لمزيد بسط في هذا الموضوع: انظر: – د. يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام، الإيمان والحياة.
(٢) سورة الأنعام: آية ١٦٢.

﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ (١).

وقوله ﷺ: «قال تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» (٢).

وقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (٣).

هذه المعاني المجملة في حديثه ﷺ يؤكدها لنا ويوضحها، ويبين لنا عواقبها الحديث التالي:

قال ﷺ: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به، فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت

---

(١) سورة النساء: آية ٣٨.

(٢) مسلم، م٩، ج١٨، كتاب الزهد، باب تحريم الرياء ١١٥.
- ابن ماجه، كتاب الزهد ٣٧، باب الرياء والسمعة ٢١، ٤٢٠٢/٢/١٣٥.
- أحمد، المسند، ٤٤٦/٣، ٢١٥/٤.

(٣) البخاري، م١، كتاب بدء الوحي ٩/١، كتاب الإيمان، ٤١ باب (إنما الأعمال بالنية) ٥٤/١٣٥.
- مسلم، كتاب الإمارة م٧، ج١٣، باب (إنما الأعمال بالنيات) ٥٣-٥٤.

فيها؟ قال: قاتلت حتى استشهدت، قال: كذبت، لكنك قاتلت لأن يقال: جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: ماعملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم. وقرأت القرآن ليقال هو قاريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار.

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال: كذبت ولكنك فعلت ذلك ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار[1]».

هذه المعاني الدقيقة والخطيرة التي تنص عليها كلمات المصطفى ﷺ لم يعد يستوعبها كثير من المسلمين الذين يقرؤون هذا الحديث ولا تهتز قلوبهم رهبة وخوفاً من

(١) مسلم، كتاب الإيمان، م٧، ج١٢، باب (من قاتل للرياء والسمعة) ٥٠-٥١.
- أحمد، المسند ٢/ ٣٢٢.

مقاصده وكأن المقصود بها قوم آخرون.

وقوله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(١).

فكيف يكذب، ويغدر، ويخون من تربى على قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٣).

وقوله ﷺ:

«أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً؛ ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(٤).

«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذبك وإذا وعد أخلف،

---

(١) مسلم، كتاب، البر، م٨، ج١٦/ باب تحريم ظلم المسلم، ١٢٠-١٢١
- أحمد، المسند: ٢/ ٣٥٩.
(٢) سورة النحل: آية ١٠٥.
(٣) سورة الأنفال: آية ٢٧.
(٤) البخاري، م١، كتاب الإيمان ٢، باب (علامة المنافق)، ٣٣-٣٤/ ٨٩.
- مسلم، م١، كتاب الإيمان، ج٢، باب (بيان خصال المنافق) ٤٦-٤٨.

وإذا اؤتمن خان»[١].

وفي رواية «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»

«يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة»[٢].

قيل لرسول الله ﷺ «أيكون المؤمن جباناً؟ فقال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: نعم، فقيل له أيكون المؤمن كذاباً؟ فقال: لا»[٣].

وفي حديثه ﷺ إشارة واضحة لأمر في غاية الخطورة، ألا وهي نفيه عليه الصلاة والسلام أن يتصف المؤمن بالكذب، وفي المقابل نفي الإيمان الكامل عن الكذاب.

ويؤيد هذا قوله ﷺ: «لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في المزاح والمراء وإن كان صادقاً»[٤].

ولكن ما نراه اليوم من أحوال المسلمين أن الكذب في كل شيء صار من مقومات حياتهم اليومية ولم يقف عند حد

(١) البخاري، م١، كتاب الإيمان ٢، باب (علامة المنافق)، ٣٣-٣٤/ ٨٩، مسلم، م١، كتاب الإيمان، ج٢، باب (بيان خصال المنافق) ٤٦-٤٨.
(٢) أحمد، المسند، ٥/ ٢٥٢.
(٣) الإمام مالك، كتاب الموطأ، الجامع، ما جاء في الصدق والكذب، ٨٤٢.
(٤) أحمد، المسند، ٢/ ٣٦٤، وفي رواية (لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب من المزاح ويترك المراء وإن كان صادقاً)، ٣٥٢.

المزاح، أو المراء.

ومن المؤكد أن الكذب الذي حذر منه ﷺ لا يقتصر على كذب اللسان والقول فقط، لكنه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، إنه كذب القلب، والنفس، والعقل، والفكر، والعمل، وهذا أساس كل شر وفتنة يقع فيها الفرد والجماعة والأمـة، لأجل هذا ربط المصطفى ﷺ بين الإيمان الكامل والصدق، والإيمان الناقص والكذب. وهذا يفيد أن المسألة قلبية داخلية، فالقلب الصادق الإيمان، يصدق لسانه وجوارحه، وعمله، والقلب ناقص الإيمان، يكذب لسانه وجوارحه، وعمله.

فالقلب الكامل الإيمان يستشعر معية الله في كل لحظة وحال، وهذا ما يعصمه من الزلل والانحراف النفسي، والقلبي، والعملي، وفي المقابل فإن استشعار معية الله يغيب حين يكون الإيمان ناقصاً، أو ضعيفاً، أو شابته شائبة ما، ومن ثم يكون الانحراف النفسي والقلبي، والعملي، لأن المسلم هنا نسي معية الله له، وعلمه فيه، وإحاطته به، أو غابت عنه تحت ركام الانحرافات فوقع في ذلك، لغياب الرقيب الداخلي.

وهكذا وضحت لنا كلمات الله، وأحاديث رسول الله

ﷺ تلك العلاقة التبادلية، والرابطة القوية التي قد تغيب عن كثير من الناس، بين استشعار معية الله وقوة الإيمان. وما يترتب على ذلك من استقامة نفسية وقلبية وعملية﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ﴾[1]؛﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2].

«قل آمنت بالله ثم استقم»[3].

«لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه»[4].

قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[5].

---

(١) سورة فصلت: آية ٣٠.

(٢) سورة الأحقاف: آية ١٣.

(٣) مسلم، م١ كتاب الإيمان، باب (جامع أوصاف الإسلام)، ٢/ ٨-٩؛ أحمد، ٣/ ٤١٣، ٤/ ٣٨٥.

(٤) أحمد، ٣/ ١٩٨.

(٥) البخاري، م٥ (كتاب المظالم)، ٣٠، باب(النهبى بغير إذن صاحبه) ١٩٩-٢٤٧٥، م١٠ (كتاب الأشربة)، ٧٤ باب قوله تعالى: إنما الخمر..)؛ ٣٠/ ٥٥٧٨، م١٢، كتاب الحدود ٦٨، باب (الزنا وشرب الخمر) ٦٧٧٢/ ٥٨-٥٩. =

«ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذيء»[1].

إن نفي الإيمان في الحديثين الشريفين عن مرتكب المعصية، قولية كانت أو فعلية، إنما هو بيان وتأكيد على أن انحراف المؤمن عن صراط الله المستقيم، إنما يتم في الفترات التي يغيب فيها المسلم عن استشعاره لمعية الله، وحين لا يتذكر بأن الله يعلم حاله، ويرى مكانه ويسمع قوله، لأنه لو تذكر في حال انحرافه أن الله معه، واستشعر أبعاد هذه المعية لما تجرأ على مقارفة ما هو فيه من انحراف، لأن إيمانه في هذه الحالة

= - مسلم، م١، ج٢، كتاب الإيمان، باب (بيان نقصان الإيمان بالمعاصي) ٤١-٤٣.
- أحمد، ٢/ ٢٤٣، ٣١٧، ٣٧٦، ٣٨٦، ٤٧٩، ٣/ ٣٤٦، ٦/ ١٣٩.
- أبو داود، م٢، كتاب السنة، ١٥، باب (الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه) ٤٦٨٩/ ٦٣٣.
- الترمذي، م٥، كتاب الإيمان ٤١/ ١١، باب (ماجاء لا يزني وهو مؤمن) ٢٦٥٥/ ١٥.
- ابن ماجه، م٢، كتاب الفتن ٣٦/ ٣، باب (النهي عن النهبة) ٣٩٣٦/ ١٢٩٨-١٢٩٩.
- النسائي، م٣، كتاب القسامة ٤٥/ ٤٨، باب ما جاء في كتاب القصاص (من المجتنى) ٤٥٢٥/ ١٠٠٥، كتاب قطع السارق ٤٦/ باب (تعظيم السرقة) ٤٥٢٦/ ٤٥٢٧/ ١٠٠٦، كتاب الأشربة، ٥١/ ٤٢ باب (ذكر المغلظات في شرب الخمر) ٥٢٣٠-٥٢٣١/ ١١٤٥.

(١) الترمذي، م٤، كتاب البر والصلة ٢٨، باب ما جاء في اللعنة ٤٨/ ١٩٧٧/ ٣٥٠؛ أحمد، م١، ٤٠٥، ٤١٦.

لابد أن يمنعه، ويحول بينه وبين الانحراف. ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (١)

ولا ريب في أن استحضار معية الله في كل حين تنمي حس الحياء عند العبد من الله، في أن يراه حيث نهاه، أو يفتقده حيث أمره، فيجتنب ما نهي عنه، ويسارع إلى ما أمر به على أكمل صورة ظاهراً وباطناً متذكراً قوله تعالى ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٢).

إن إدراك حقيقة معية الله هذه، واستحضارها في كل حين، تبصر المؤمن بما هو عليه من حال، وما هو خاضع له من رقابة، وهذا التبصر والاستحضار، ليس بالذهني، أو النظري فقط، إنما هو قلبي داخلي أيضاً ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٣).

---

(١) سورة الأعراف، آية ٢٠١.
(٢) سورة يونس، آية ٦١.
(٣) سورة الحج: آية ٤٦.

نعم إنه أمر قلبي «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا» وأشار المصطفى ﷺ إلى صدره، وأكمل «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»[1] ولكن، قد عميت قلوب كثير من مسلمي هذا العصر عن رؤية معية الله لهم، وأظلمت دنياهم، وقست قلوبهم، وعمت أبصارهم، فانحرفت خطاهم عن منهاج الله، ووقعوا في كثير مما نهاهم ربهم عنه، وحذرهم رسولهم ﷺ منه، دون أن يشعروا بما هم عليه من حال ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[2]، بل﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[3] ذلك، لأن إدراك حقيقة المعية، ومعرفة أنها تقتضي الإيمان بعلم الله وإحاطته، واطلاعه على خلقه في أي مكان وعلى كل حال، وفي كل زمان، يولد المراقبة التامة لله، والخوف من حسابه وعقابه، والاجتهاد في طاعته، والابتعاد عن معصيته، وكذلك (إن شعور المؤمن بمعية الله وصحبته دائماً يجعله في

---

(١) مسلم، م٨، كتاب البر، ج١٦، باب (تحريم ظلم المسلم)، ١٢٠-١٢١.
- أحمد، المسند ٢/ ٢٨٥، ٥٣٩.
- ابن ماجه، السنن، كتاب الزهد ٣٧، باب (القناعة) ٩، ١٣٨٨/ ٤١٤٣.
(٢) سورة الكهف، آية ١٠٤.
(٣) سورة الأعراف: آية ٣٠.

أنس دائم بربه، ونعيم موصول بقربه، يحس أبداً بالنور يغمر قلبه ولو أنه في ظلمة الليل البهيم، ويشعر بالأنس يملأ عليه حياته وإن كان في وحشة من الخلطاء والمعاشرين ينشد ما قاله العبد الصالح يناجي ربه:

إن قلباً أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج[1]

وإذا كان هذا هو حال مسلمي هذا العصر مع معية الله العامة التي شملت البر والفاجر، المؤمن والكافر، الإنسان والكون، بل الحياة كلها بما فيها، ومن فيها، فما حالهم ياترى مع معية الله الخاصة؟.

هذا ما سنبينه في المبحث التالي بإذن الله تعالى.

(١) د. يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، ١٢٥.

المبحث الثالث

المعية الخاصة

وإذا تبين لنا من خلال ما تقدم، كيف انحرف مسلمو هذا العصر عن إدراك معنى المعية العامة، وما ترتب عليه من انحرافات نفسية وعملية. فإن موقفهم من إدراك حقيقة المعية الخاصة قد عراه الانحراف نفسه، وهذه نتيجة طبيعية بالنسبة لمسار الأمور، ذلك أن إساءة فهم القواعد العامة، والأسس الأولية للعقيدة أو لأي معتقد أو فكر، يؤدي غالباً إلى إساءة فهم قواعده الخاصة، والعكس صحيح.

أي أن إساءة فهم القواعد الخاصة يترتب عليها إساءة فهم القواعد الكلية العامة، ومن ثم يحدث الخلل في التعامل معها والسبب في ذلك وجود العلاقة التبادلية، والارتباط الوثيق بين العام والخاص، والأصل والفرع.

ويحسن بنا قبل البحث فيما طرأ من انحراف على إدراك مسلمي هذا العصر لمعنى المعية الخاصة، أن نبين معناها الشرعي ومقاصدها الدينية، حتى تتضح لنا من خلال التصور الكامل طبيعة الانحراف في الفهم والتطبيق.

المعية الخاصة:

هي معية القرب، وتتضمن النصر، والتأييد، والمعونة، والكفاية، والمؤازرة، والحماية والحفظ، والدفع، وهي من صفات الله الفعلية المرتبطة بأسباب وجودها، أو انتفائها. وهي مختصة بمن استحقها من عباد الله المؤمنين، من الأنبياء والمرسلين، والصالحين والمتقين والمحسنين[1].

ومن أمثلتها:

قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[2].

وقوله تعالى لموسى ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[3].

أي في الدفع عنكما، كما قال الإمام أحمد[4].

﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ

(١) انظر: ابن تيمية، الفتاوي، ٢/٢٧٦، ٥/١٠٤، ٢٣١، ١١/٢٤٩-٢٥٠، درء تعارض العقل والنقل، ٦/١٤٦-١٤٧.
- ابن عثيمين، رسائل في العقيدة، ٦٧، د. موسى بن سليمان الدريش (علو الله على خلقه)، ٢٥٨؛ د. صالح الفوزان شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، ٦٨؛ د. محمد أمين الجامي، الصفات الإلهية، ٢٣٩-٢٤٠.

(٢) سورة النحل: آية ١٢٨.

(٣) سورة طه: آية ٤٦.

(٤) أحمد بن حنبل، الرد على الزنادقة والجهمية، ٩٧ (مرجع سابق).

مَعَنَا ﴾[1].

قال الإمام أحمد: في الدفع عنا[2].

وهي متجسدة في قوله ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه حين رأى أبو بكر آثار المشركين فقال: «يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا. فقال له المصطفى ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[3]. فهذه معية النصر والسكينة، والحفظ.

قال تعالى ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[4].

قال الإمام أحمد: في النصر لهم على عدوهم[5].

هذه الآيات الكريمة وغيرها مما استدل به علماء الإسلام قديماً وحديثاً على إثبات معية الله الخاصة، وقصرها على فئة خاصة من البشر وهم: الأنبياء والرسل، ومن سار على نهجهم من عباد الله المتقين المحسنين الصالحين.

---

(١) سورة التوبة، آية ٤٠.
(٢) الرد على الجهمية، ٩٧.
(٣) فتح الباري، م٨/ كتاب التفسير٦٥، سورة براءة، ٩ باب (ثاني اثنين إذ هما في الغار)، ٣٢٥.
(٤) سورة البقرة: آية ٢٤٩.
(٥) الرد على الجهمية، ٩٧.

إن قصر هذه المعية على هذه الفئة له مسوغاته الإيمانية التي جعلتها فئة مؤهلة لأن تكون مستحقة لنيل هذه المعية الخاصة، وهذا من سنن الله في خلقه، فقد جعل الله تبارك وتعالى لكل شيء سبباً - نظام السببية من القوانين التي وضعها الله عز وجل لضبط نظام الكون وسيره- فإن هذه الفئة قد آمنت إيماناً يقينياً حقيقياً، وربطت هذا الإيمان بالعمل الصالح الجاد لتحقيق الهدف الذي خلقت لأجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ ، فحققت العبودية الصحيحة لله: عبودية الإيمان والعمل، لا الإيمان فقط، أو العمل فقط، لكنه اتحاد العقيدة والعمل، للقيام بأمانة الخلافة على الأرض، إنها حركة القلب السليم، ويقظة الفكر المستقيم، وترجمة العمل الصالح القويم. لقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن العبادة فقال: (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)[(١)] .

بهذا الفهم الحقيقي لمعنى العبودية لله، وحسن التعامل مع سنن الله التي ذكرها القرآن الكريم استحقت تلك الفئة أن تنال معية الله الخاصة، معية النصر، والتأييد، والمؤازرة،

(١) الفتاوى، ١٠/١٤٩.

والحفظ والرعاية.

وقد ذكر العلماء الصفات التي استحقت بها تلك الفئة معية الله الخاصة بنصره وتأييده وهي: [1]

١- اتباع شرع الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [2].

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [3].

٢- نصرة دينه، وجهاد أعدائه حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [4]

٣- عبادة الله كما أمر؛ بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [5].

٤- إقامة حدود الله على أرضه، والحكم بما أنزل من شرعه

(١) انظر محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، ٥/ ٧٠٣-٧٠٤.
(٢) سورة المائدة: آية ١٦.
(٣) سورة النساء: آية ٣١.
(٤) سورة الحج: آية ٤٠.
(٥) سورة الحج: آية ٤١.

على رسوله ﷺ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[1].

٥- الالتزام بطاعة الرسول ﷺ واتباعه لأنها من طاعة الله. ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[2].

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[3].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[4].

٦- الالتزام بتقوى الله، ومراقبته سراً وعلانية ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[5].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[6].

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ

---

(١) سورة النور: آية ٥١- ٥٢.
(٢) سورة النساء: آية ٨٠.
(٣) سورة الأحزاب: آية ٧١.
(٤) سورة آل عمران: آية ٣١.
(٥) سورة النحل: آية ١٢٨.
(٦) سورة الأنفال: آية ٢٩.

جعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [١] .

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [٢] .

٧- إن من اتصف بما تقدم كله ، فإن له التمكين والاستخلاف على الأرض ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [٣] .

هذه معية الله الخاصة التي من مقتضياتها نصر الله وحفظه لمستحقها ، وهي معية لها قوانينها الإلهية الثابتة . . منها :

أولاً : الإيمان بأن النصر الحقيقي التام من عند الله وحده .

فمن نصره الله لا خاذل له أبداً ، وإن ضعفت قوته وقلت إمكاناته ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٤] .

يقين جازم وتسليم تام بأن الأمر بيد الله وحده ، فلا يتعلق القلب بغيره ، ولا ترجو النفس سواه ﴿ وَمَا

(١) سورة الطلاق : آية ٢-٣ .
(٢) سورة الطلاق : آية ٥ .
(٣) سورة النور : آية ٥٥ .
(٤) سورة آل عمران : آية ١٦٠ .

النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عندِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١] .

إن مثل هذا اليقين يؤدي إلى الصبر، واحتمال الأذى في سبيل الله . ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[٢] .

إن معية الله هنا : تحققت للذين قاتلوا في سبيله وصبروا على ذلك، فهنا عمل ارتبط بصبر فاستحق معية النصر، ولم يكن صبر المتخاذل، ولا يقين المتقاعس المتواكل.

ثانياً : إن نصر الله وتأييده لا يكون إلا لمن نصر الله . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[٣] .

قانون إلهي ذكره الله تبارك وتعالى بصيغة الشرط والجزاء . وتأكد هذا القانون الإلهي مرة أخرى بـ (لام القسم، ونون التوكيد)، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[٤] .

(١) سورة الأنفال : آية ١٠ .
(٢) سورة البقرة : آية ٢٤٩ .
(٣) سورة محمد : آية ٧ .
(٤) سورة الحج : آية ٤٠ .

فهذا تأكيد إلهي بأن نصره لا يناله إلا من نصر دينه، وأعلى كلمته، وقام بما أمره مخلصاً ذلك كله لله وحده، وأيقن تمام اليقين بأن الله قد خلق الدنيا لعباده، لكنهم -العباد- خلقوا لله وحده، هو غايتهم وإليه مقصدهم، ورضاه همهم، قلوبهم خالصة له، وعملهم خالص لوجهه، أما الدنيا فهي في أيديهم لا في قلوبهم، عَبَدوها ولم يعبدوها، ولتكون طريقهم إليه، فاستحقوا بذلك معية النصر والتأييد، بل التمكين في الأرض ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (١).

وإذا كان للنصر والتأييد قوانينه الصارمة، فإن الحفظ والرعاية والاستجابة لها قوانينها الصارمة كذلك.

قال الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنه:

« ياغلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك.. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا

(١) سورة الحج: آية ٤١.

على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»[1].

وفي رواية: «احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة واعلم أن ما أخطاك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»[2].

فمعية الحفظ والإحاطة والتأييد والعناية، والتوفيق، والنصر، والتسديد، تستلزم من العبد التعلق بتقوى الله والالتزام بطاعته، واجتناب معصيته، والثقة به عند الشدائد، والرجوع إليه عند الخطوب، والاعتماد عليه وحده لأن نواصي العباد بيده.

هكذا يكون حفظ العبد لربه، كما قال ﷺ: «احفظ الله يحفظك».

وبعبارة أخرى من أدى مقتضيات معية الله العامة وقام بها، فإن الله يمن عليه بمعيته الخاصة، ويصطفيه لها.

(١) الترمذي، الجامع الصحيح (السنن)، كتاب (صفة القيامة) ٣٨، باب ٥٩/٢٥١٦، ٤/٦٦٧.
(٢) أحمد، المسند، ١/٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧.

فتحقق المعية الخاصة، لا يكون عفواً، ولا اعتباطاً، كما أنها لا تكون بأماني الكسالى الخاملين، أو أحلام الغافلين المتواكلين، إنما هي تصديق العمل الصالح، للإيمان الصادق.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[(١)].

وقد أكد الرسول ﷺ في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه حقيقة أنه على العبد أن يسعى بخطى صادقة على طريق الله المستقيم، لكي يحظى بإقبال ربه إليه، وينال خاص معيته.

قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل:

« إذا تقرب العبد إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإذا تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا أتاني مشياً أتيته هرولة»[(٢)].

---

(١) سورة النساء: الآيات، ١٢٣-١٢٤.

(٢) فتح الباري، كتاب التوحيد ٩٧، باب ذكر النبيﷺ روايته عن ربه ٥٠، ١٣/ ٥١٢ (٧٥٣٦-٧٥٣٧).

- مسلم بشرح النووي، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، م٩، ج١٧/ ١١، (فضل الذكر والدعاء).

- أحمد، ٢/ ٣١٦ وبدايته: (إذا تلقاني عبدي...).

وفي رواية أخرى قال ﷺ : «يقول الله عز وجل : «أنا عند ظن عبدي بي ، أنا معه حين يذكرني إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي» وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[1] .

ومصداق هذا قول الله تبارك وتعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2] .

وخلاصة ما تقدم : أن معية الله الخاصة لا تكون بطريقة عشوائية ، فما ينالها العبد بالمصادفة المحضة ، ولا هي أمر عفوي يحصلها بعض الخلق بصورة تلقائية تأتي في إطار عبثي ، لأن الله تبارك وتعالى منزه عن العبث ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[3] .

---

(١) مسلم بشرح النووي ، كتاب الذكر والدعاء والاستغفار ، م٩ ج١٧/ ٢-٣ ، ١٢٠ .

- الترمذي ، السنن (الجامع الصحيح) كتاب الدعوات ٤٩ ، باب في حسن الظن بالله ١٣٢ (٣٦٠٣) / ٥/ ٥٨١ .

- ابن ماجه ، السنن ، كتاب الأدب ٣٣ ، باب فضل العمل ٥٨ ، (٣٨٢١-٣٨٢٢)/ ٢/ ١٢٥٥-١٢٥٦ .

- أحمد ، المسند ، ٢/ ٢٥١ ، وبدايته (أنا مع عبدي حين يذكرني . .) .

(٢) سورة البقرة : آية ١٢٥ .

(٣) سورة المؤمنون : آية ١١٥ .

وإنما هي كما اتضح لنا خاضعة لنظام إلهي صارم، وقانون رباني ثابت، يؤكد أن تحقق مقتضياتها مرتبط بتحقق أسبابها، وجوداً وعدماً.

ومن ثم فإنه لا نصيب فيها للغافلين، القاعدين اللاهين، السائرين في ركاب المبطلين.

على نفسه فليبك من ضاع عمره

وليس له فيها نصيب ولا سهم

والآن.. يستوقفنا سؤال: يا ترى هل يعي المسلمون في هذا العصر هذه المعاني جميعاً، بأبعادها الإيمانية القلبية، والعملية؟

أو أنه قد ران على قلوبهم وعقولهم، ما أغشى أبصارهم وأعمى بصائرهم، فأساؤوا الفهم وأساؤوا العمل؟

إن المتأمل في واقع مسلمي هذا العصر، وما آلت إليه أحوالهم، يجد أكثرهم وللأسف الشديد قد أخذوا دينهم، وكتاب ربهم وراثة عن الآباء والأجداد، أخذاً تجسدت فيه كثير من معاني السطحية وسوء الفهم والعجز عن التطبيق، مكتفين بأنهم ينتسبون إلى الإسلام وأن نسبهم هذا إليه كفيل

بتحقيق معية الله الخاصة لهم، أليسوا بالمسلمين؟ أليسوا هم أتباع المصطفى عليه الصلاة والسلام؟ أما يحملون هوية المسلم؟ إن ذلك في نظرهم يكفي.

ومع توارث الدين جيلاً بعد جيل، بدأت حدة الانحراف عن المنهاج الرباني تزداد وتقوى وتنتقل من الانحراف السلوكي، إلى الانحراف العقدي داخل نفوسهم، وترسخ فيها تواكل الصوفية، وتواكل الفكر الإرجائي، ليصلوا إلى أن يكونوا الخلف السيء الذي أشار إليهم القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[1].

إشارة ربانية عظيمة إلى أن الإنسان قد يعتمد على وضع معين مظنة الوصول إلى نتيجة خاصة. وهو فهم خاطئ، لكنه واقع يعيشه كثير منا في هذا العصر، فقد أصاب حسّنا الإسلامي الكثير من الانحراف، ولم نعد نستوعب مفهومات ديننا الرئيسة، ولا نعيش أصول عقيدتنا الصحيحة، معتمدين على نسبتنا إلى الإسلام وادعائنا بأننا مسلمون.. وهي نسبة لا تغني، وادعاء لا يفيد، إن لم

(١) سورة الأعراف: آية ١٦٩.

يتحقق من خلال واقع إيماني قلبي، وسلوك عملي يجسد حقيقة هذا الانتساب، ويصدق زعم هذا الادعاء.. ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[1].

والحقيقة أنه إن كان التصرف العملي، والسلوك الواقعي مخالفاً للإيمان، متبعاً للهوى، فإن النسبة كاذبة، والزعم نفاق، والادعاء باطل، بل إنها مخادعة لربنا، ولأنفسنا.. ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[2].

إن الواقع الذي نعيشه اليوم، وما يعانيه المسلمون من ذل، وهوان، وضعف، وعجز، وتقاعس، لهو أصدق شاهد على ما وقع من انحراف أدى فصل العمل عن الاعتقاد، وحول التوكل إلى تواكل، وقصر التكليف الرباني على التصديق والإقرار فقط، مع البعد عن مقاصد الدين ومراميه، واجتث جذور الدين الصحيح من صدور كثير

(١) سورة مريم: آية ٥٩.
(٢) سورة النساء: آية ١٤٢.

منا، واجتث جذور كثير منا من أرض الدين الصلبة، فسهل على التيارات الفكرية والعقدية والاستبداد السياسي وغيرها أن تجرف الكثيرين إلى مهاوي السلبية. لأنهم أصبحوا بلا جذور تثبتهم على طريق ربهم المستقيم.

وانحسر الإسلام من كونه واقع حياة معاش في النفس، والعقل، والقلب، والعمل، والالتزام بمبادئه الخلقية، والسلوكية، وتحويل ذلك كله إلى طاقة دفع بناءة محركة، تعمر الأرض، وتقيم الخلافة عليها، إلى مجرد إطار براق، يُتحدث عنه، ويُفكر فيه، ويعجب به، ولكن دون أن يكون له ذلك الإتصال المباشر بحياة الناس، فتحولت حياة المسلمين إلى حياة سلبية متخاذلة، لم تعد تقوى على فعل شيء في الأرض، ولا حتى المحافظة على وجودها الإسلامي أمام القوى المتكالبة عليها من كل حدب وصوب.

أجل.. لقد تحول فهم أبعاد معية الله الخاصة من: العمل والإقدام والتوكل والقيام بالمسؤولية واتخاذ الأسباب التي اقتضتها سنن الله في خلقه وكونه؛ إلى التقاعس، والقصور والتفريط بالأمانة، والفصل بين الإيمان والمسؤولية، والتجاهل للسنن الجارية، وعدم الأخذ بها انتظاراً لنصر الله،

وقدر الله، وهذا -بلا شك- فهم خاطئ يسوق إلى عواقب سيئة.

لقد اختل التوازن البديع بين الإيمان والعمل والذي تجسد واضحاً في حس الجيل الأول... وتحول إلى تنصل من المسؤولية، وقعود عن العمل، واستسلام للسلبية في حس جيلنا المعاصر، ثم يأتي -مع هذا الانحراف- الإصرار على استحقاق معية الله الخاصة، بنصره، وتأييده، وحفظه، ورعايته وتثبيته. سواء أعمل لذلك أم لم يعمل.

فالانتساب إلى الإسلام -كما يتوهم البعض- أصبح كافياً وحده للإصطفاء، وهذه سطحية فاضحة في فهم مقاصد الدين، وسوء فهم مركب لعقيدة الإسلام ومقتضيات الإيمان، بل هي الغرور عينه كما قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (وإن الذين لا يقيمون الصلاة، ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ليس لهم وعد من الله بالنصر البته. فمثلهم كمثل الأجير الذي لم يعمل لمستأجره شيئاً، ثم جاءه يطلب منه الأجرة.

فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممن يتسمون باسم

المسلمين ثم يقولون: إن الله سينصرنا مغرورون لأنهم ليسوا من حزب الله الموعدين بنصره كما لا يخفى)[1].

ولكن لماذا فقد المسلمون إدراكهم لمعاني معية الله الخاصة، وقبل ذلك استشعارهم لأبعاد معيته العامة؟ هذا ماسنبينه بإذن الله في صفحات المبحث القادم.

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، ٧/ ٤٢٣.

المبحث الرابع

أسباب الخلل ومسبباته

رأينا من خلال ما تقدم كيف انحرف مسلمو هذا العصر في إدراك مفهوم المعية بنوعيها: العام، والخاص، وفي معرفة أبعادها الحقيقية، ومعانيها الإلهية، ومراميها التي تستلزمها من أجل تحقيقها.

وكيف أدى هذا الانحراف في الفهم والإدراك، إلى الانحراف العملي السلوكي في التعامل معها.. مما انعكس بآثاره السلبية المؤلمة على واقع المسلمين في نطاق الفرد والجماعة، بل الأمة في مجموعها. وإذا كان مثل هذا الانحراف قد يقبل في الأمم التي ليس لها دين إلهي صحيح يعصمها كالأمم الوثنية، أو لها دين إلهي ولكنها بدلت شرع الله وحرفت الكلم عن مواضعه.. فكيف يعقل في أمة الإسلام التي تكفل الله بحفظ كتابه فيهم؟﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١). وجعلها أمة وسطاً﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (٢).

(١) سورة الحجر: آية٩.

(٢) سورة البقرة: آية ١٤٣.

إن أمـر المسلمين لعـجـيب، فكيف يسيؤون الفـهـم، ويعجزون عن الإدراك؟ وهم يتلون كتاب ربهم ليل نهار، ويرددون آياته في كل حين.. تفتتح به المناسبات، وبرامج الإذاعـات والرائي، وتخـتـم به.. ولكن دون أن يكون له ذلك الأثر المحرك في حياة المسلمين، فتعاملهم مع القرآن وما ورد فيه تعامل جزئي قاصر. لا يتجاوز ظاهر السياق إلى باطنه ومراميه، حيث تضاءل تأثير الفكر والرؤية القرآنية في واقع حياة المسلمين.

وأصبح المسلم اليوم يعيش أمية عقلية في تعامله مع القرآن الكريم.. أمية تعني ذهاب العلم بكتاب الله، والفقه بما فيه، أمية أشار إليها المصطفى ﷺ في الحديث الذي رواه زياد ابن لبيد حيث قال: «ذكر النبي ﷺ شيئاً، فقال: «ذاك عند أوان ذهاب العلم» قلت: يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبنائنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: «ثكلتك أمك يا زياد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل لا يعملون بشيء مما فيهما»[1].

(١) ابن ماجه، السنن، كتاب الفتن ٣٦، باب ذهاب القرآن والعلم ٢٦ (٤٠٤٨) ٢/ ١٣٤٤. =

وما حدث للمسلمين من تقصير مع كتاب ربهم حدث مع سنة نبيهم ﷺ وسلم فهم يقرأونها. ويعتزون بها ويعلمونها لأبناءهم.. لكن دون أن يتعاملوا معها تعاملاً حقيقياً يتجاوز ظاهر الكلمات، إلى حقيقة المعنى، وصدق الموقف، وحسن الإتباع.

إن مجرد تلاوة القرآن وقراءة كتب السيرة، ودراسة ما ألفه العلماء في أصول الدين وفروعه دون التعامل مع الأسباب التي ذكرت، والمعاني التي قصدت، والأهداف التي حددت والمقاصد التي استنبطت، والإستفادة من ذلك كله لن ينفع في الواقع العملي. وهذا يشير إلى أن خللاً قد وقع في الأداة التوصيلية بين القرآن وقارئه، وبين السنة ودارسها، وبين كتب الفقهاء وعلماء السلف ومتعلميها، بين ذلك كله، ومسلمي هذا العصر.

= - أحمد، المسند، ٤/٢١٨-٢١٩.

وفي رواية الدارمي «عن أبي أمامه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خذوا العلم قبل أن يذهب، قالوا: وكيف يذهب العلم يا نبي الله، وفينا كتاب الله؟ «قال فغضب لا يغضبه الله، ثم قال: «ثكلتكم أمهاتكم، أو لم تكن التوراة والإنجيل في بني إسرائيل فلم يغنيا عنهم شيئاً، إن ذهاب العلم أن يذهب حملته، إن ذهاب العلم أن يذهب حملته»، السنن المقدمة، باب (في ذهاب العلم) ٢٦، (٢٤٣)، ١/ ٨٢-٨٣.

فما هو هذا الخلل؟ وفي أي الجوانب وقع؟ وكيف وقع؟ وإلى متى يستمر؟ كيف فقدت مصادر الدين الأساسية «الكتاب والسنة، وما تعلق بهما من تراث العلماء» اتصالها المباشر بحياة المسلمين؟، لماذا قَصر المسلمون في فهم سنن الله الكونية في الأرض، وفي أنفسهم، ولم يعودوا يحسنون التعامل معها، والاستفادة منها؟.

كيف نسي المسلمون خالقهم، ونقضوا عرى دينهم، وكأنهم لا يقرون قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ (١).

هذا التساؤلات وغيرها تؤكد لنا ضرورة البحث عن منبع الخلل، وأسباب الانحراف عن منهاج الله، حتى يمكن الإسهام في إصلاح ذلك، فمعرفة أبعاد المشكلة وجذورها جزء من علاجها، بل هو الخطوة الأولى في ذلك.

وإذا حاولنا تقصي أسباب هذا الانحراف الخطير عن المنهاج الرباني الصحيح للإيمان، وتتبع أصوله، فسوف نرى أن حقيقة هذه المأساة الإيمانية- بالنسبة للفرد والمجتمع والأمة- تكمن في الأسس الأولى التي تستمد منها الأجيال

(١) سورة الحشر: آية ١٩.

الإسلامية المتعاقبة، أصولها الإيمانية، وقواعدها الأخلاقية، ومبادئها السلوكية العملية، ألا وهي التربية التي يتم من خلالها صياغة الفرد، روحاً وعقلاً، وفكراً، وسلوكاً.

ذلك أن رسالة التربية هي صنو لرسالة الأمة في الحياة، فعن طريقها يوجد الفرد الصالح والأسرة الصالحة، والمجتمع الصالح، والأمة الصالحة.. أو العكس، ومن خلالها تنمو مفهومات الخير ومبادئه، أو الشر وأبعاده بين الأفراد.. وبها تبنى الحضارة والرقي، أو تهدم؛ فالتربية هي العملية التي توجه سلوك الأفراد نحو الأهداف المتوخاة، والتربية لا توجد في فراغ، إنما هي إطار يحوي أساليب ووسائل، وآليات تنقل من خلالها عقائد الأمم وتراثها من جيل إلى جيل ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

وللتربية وسائط مختلفة تعمل مجتمعة، أو متفرقة على صياغة الفرد بصورة معينة، إيجابية كانت، أو سلبية. وتتمثل هذه الوسائط في: البيت، التعليم، المجتمع، الإعلام، وغيرها من الوسائط التي تشكل عقلية الفرد ونفسيته،

(١) سورة النحل: آية ٧٨.

وتبلور أفكاره وتصرفاته، بصورة مباشرة، أو غير مباشرة.

لأجل هذا، فإن أول ما يجب أن يبحث فيه عن الخلل هو الوسائط التربوية.

إن كثيراً من المسلمين قد تربوا على الإيمان، لكنه إيمان الوراثة والتلقين، لا إيمان الاعتقاد واليقين، نعم.. إنهم ولدوا في بيئة إسلامية، ونشؤوا في مجتمع مسلم، وتعلموا أركان الإيمان، وقواعد الإسلام، ومارسوا ذلك كله بحكم العادة والتقليد، مقتنعين أن العقيدة من المسلمات الواقعة بالفعل، فالتصديق بها قائم والإقرار بذلك حاصل؛ فقد استقر الإيمان بترديد النطق بالشهادتين، وأديت العبادة بممارسة الشعائر التعبدية الظاهرية، وتحول الإيمان، والإسلام إلى مظهرية شكلية، تمارس بسهولة ويسر، ولكن يعجز القلب عن استشعارها وتخيب النفس في تذوق حلاوتها.

إن أسلوب الحفظ والتلقين الذي تتوارث به العقيدة جيلاً بعد جيل قد أسلم إلى هذا الغبش العقدي، فالمتتبع لوسائط التربية في المجتمع المسلم يجد أنها قد أسهمت إلى حد كبير في انحراف المفهومات العقدية وتشويهها في نفوس الناشئة، فإذا ألقينا الضوء على بعض الوسائط التربوية ووسائلها

المستخدمة تبين لنا كيف حدث ذلك .

١ - البيت :

الأسرة هي المحضن الأساسي الذي يتلقى فيه النشء، الأصول الرئيسة التي تحدد ملامح شخصياتهم بمقوماتها الإيمانية، والفكرية، والروحية، والأخلاقية، عن طريق الكلمة والتوجيه، والقدوة العملية .

قال ﷺ : «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول : ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾»[1] .

ومع وضوح هذه الإشارة النبوية إلى دور التربية في زرع الأسس العقدية الإيمانية، وما يقوم عليها من جوانب معنوية وعملية في توجيه الفرد، إلا أن المسلمين لا يكادون يلتفتون إلى هذه الحقيقة في عملية بناء الفرد والأمة .

---

(١) فتح الباري، كتاب التفسير ٦٥، تفسير سورة الروم (٣٠) باب (لاتبديل لخلقة الله (٤٧٧٥)، ٨/ ٥١٢، كتاب القدر ٨٢، باب (الله أعلم بما كانوا عاملين ٣(٦٥٩٩)، ١١/ ٤٩٣ وفيه زيادة (حتى تكونوا أنتم تجدعونها) .
- صحيح مسلم، م٨، كتاب (البر والصلة والآداب)ج١٦، باب (معنى كل مولود يولد على الفطرة)، ٢٠٩-٢١٠ .

فالطفل يربى في معظم البيوت الإسلامية، ومنذ نعومة أظفاره على الإيمان بالله، إيماناً نظرياً، وترديد كلمة التوحيد ترديداً كلامياً. لكن قلة من البيوت تجتهد في نقل هذا الإيمان من اللسان إلى القلب، ونقل الطفل من العيش مع ظاهر كلمة التوحيد، ومظاهر الإيمان، إلى العيش مع معاني الكلمة، واستشعار أبعادها الإيمانية الحقيقية، بحيث يكون إيمانه نابعاً من يقين ومعايشة، واستشعار لمعية الله وإحاطة علمه، وإدراك لحقيقة الربوبية والألوهية، وفهم واضح لمعنى العبودية، وتقديم ذلك كله بصورة ميسرة تناسب عقلية الطفل ونفسيته، وترتقي مع نموه المضطرد، بحيث تكون حياته المستقبلية قائمة عليها اعتقاداً وقولاً وعملاً.

ولكن للأسف الشديد إن قضية تأصيل الفهم العقدي الصحيح لا تلقى من الأسرة المسلمة الاهتمام الكافي، على أساس أنها من المسلمات البدهية التي لا تحتاج مزيد عناء، وهذه النظرة، نظرة سطحية قاصرة، عملت على مرور الأجيال على توهين الأسس العقدية الصحيحة في نفوس كثير من المسلمين، والأمر من ذلك كله هو عدم الشعور بخطورة هذا الأمر الذي بتنا نرى نتائجه المدمرة في كل بقعة

من بلاد الإسلام. . . حتى وإن زعمنا بأن هنالك صحوة إسلامية، كيف نؤمن بصحوة تتمسك وتعنى بمسائل ظاهرية، وتترك الأساس العقدي دون تصحيح.

والبيت لا يبنى إلا له عمد

ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

إن العقيدة الصحيحة لا تكون بالوراثة، والتلقين، والاستسلام للعرف والعادة، لكنها علم صحيح، ومعرفة حقيقية، ويقين صادق تتشربه النفس، ويستوعبه العقل، وتعيشه الجوارح في كل لحظة.

وهذا النوع من التربية الإيمانية يكاد يفتقد في كثير من البيوتات الإسلامية، التي قد يعنى أهلها بأمور تربوية مختلفة، لكنهم يهملون الأساس الذي تحيا به الأجيال وتقوم عليه الأمم؛ الإيمان اليقيني الذي يملأ القلب، وتحويه النفس ويحويها، وتمتد جذوره قوية راسخة في كيان الإنسان كله فيصبح فكره وحركته ومواقفه نابعة من ذلك الأصل الإيماني، وهذا مالا نكاد نراه اليوم في أسلوب التربية العقدية التي تعمل على الوصول بالطفل إلى الإقرار الذهني المجرد

بوحدانية الله ورسالة محمد ﷺ، وما يترتب عليه من سطحية النطق» وظاهرية العمل وبالتالي ضعف العقيدة.

أما الاجتهاد في ترسيخ المعاني الربانية، وتوثيق الصلة بين الطفل وربه، حتى يصبح الإيمان يقيناً قلبياً، يحرك المشاعر، وينطق اللسان، ويسير الجوارح، ويؤصل العقيدة، وينعكس أثره على السلوك الشخصي والجماعي، فيكاد يكون مفتقداً في أسلوب التربية عند كثير من المسلمين، لاقتناعهم كما أسلفنا بأن قضية الإيمان من المسلمات البدهية التي لا تحتاج إلى مزيد عناية:

وينشأ ناشىء الفتيان فينـــا
على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجى ولكن
يعوده التدين أقربـــوه

يضاف إلى ذلك ما يراه النشء، من تناقض حاد بين ما يتلقى من أبويه، وما يمارسه الأبوان من سلوك عملي، فما يسمعه منهما شيء، وما يراهما عليه شيء آخر.

إن من السهل على الوالدين أن يلقنا أبناءهما مبادىء الدين، وأسس العقيدة، وأركان الإيمان والإسلام، وغيرها

من قيم الدين، ومبادىء الأخلاق والمثل العليا . . . ولكن من الصعب أن يستجيب الطفل لذلك كله إذا أدرك أن من يقوم بتربيته غير محقق لذلك، غير مطبق له، لأجل هذا نعى القرآن الكريم على قوم مخالفة أفعالهم لأقوالهم، قال الله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾[1].

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[2].

إذاً فتحقق القدوة الصالحة مطلب ديني تربوي أساسي.

فالطفل الذي يرى من أبويه، أو من يقوم بتربيته قدوة صالحة تحققت بأخلاق الإسلام وقيم العقيدة، ينشأ وقد تشرب بمبادئ الخير، وتحقق من صدق الإيمان وربط إيمانه بعمله، وعاش معية الله الخاصة والعامة بكل معانيها ومراميها، ولكن في المقابل إن رأى من أبويه تناقض القول والعمل، وغياب الحس الإيماني، فإنه ينزلق في الطريق نفسه . . . ويتبع الخطا نفسها:

وهل يرجى لأطفال كمال

إذا ارتضعوا ثدي الناقصات

(١) سورة الصف: آية ٢-٣.

(٢) سورة البقرة: آية ٤٤.

٢ ـ التعليم* :

يعد الاهتمام بالتعليم، من السمات المميزة لرقي الأمم. وإن البلد ليصنف في قائمة الدول المتحضرة بقدر انتشار التعليم فيه.

ومع هذا يظن معظم الناس أن وظيفة التعليم تقتصر على تعليم مبادىء القراءة والكتابة، وإكساب الفرد المعلومات، والمعارف النظرية، أو العملية فقط، وذلك عن طريق المؤسسات التعليمية بمختلف مستوياتها.

وهذا فهم قاصر لدور التعليم، ذلك أن عملية التعليم في حقيقتها عملية لصياغة الفرد صياغة: عقلية، ونفسية، وتربوية، وأخلاقية، وهي تقوم بدور كبير في الحفاظ على فطرة الإنسان، أو تشويهها.

ووظيفة التعليم في المفهوم الإسلامي:

العمل على تشكيل الفرد المسلم بصورة متكاملة تتحقق من خلالها التربية الإسلامية الصحيحة بجوانبها: الفكرية،

* مصطلح تعليم.. يشتمل على ما يكتسبه الإنسان من معلومات، ومهارات وآداب، وقدرات، ومقدرات، ومعتقدات، وقيم، ومعاملات، وغيرها مما يكتسبه الإنسان طيلة حياته... ولكننا هنا سنركز على التعليم النظامي وبمؤسساته المختلفة من مدارس، ومعاهد، وكليات، وجامعات.

والعقلية، والنفسية، وذلك على أسس عقدية سليمة، تستوعب من خلالها المقاصد الشرعية بأهدافها المختلفة، والمبنية على أساس تحقيق الهدف الأسمى: عبادة الله وحده، وإخلاص التوجه له﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

وربط الفرد بربه من خلال غرس الأبعاد الإيمانية في نفوس الناشئة، بحيث يتعلم كيف يعيش الإيمان في لحظاته كلها.

فهل هذه الصورة الإسلامية تنطبق على مسيرة التعليم في البلاد الإسلامية؟

الواقع يقول لا .....

حيث لا يشغل التعليم الديني في معظم البلاد الإسلامية سوى حيز صغير يدرس من خلال مادة الثقافة الإسلامية وبصورة سطحية هشة، لا تبني فكراً، ولا ترسخ إيماناً ولا تشكل شخصية، بل هو كما وصفه إقبال حين قال في وصفه للمدرسة الحديثة:

(إنها قد تفتح أعين الجيل الجديد على حقائق ومعارف،

(١) سورة الذاريات: آية٥٦.

لكنها لا تعلم عينه الدموع، ولا قلبه الخشوع).

ولن نتمكن هنا من تتبع وضع التعليم في العالم الإسلامي، فالذي يعنينا في هذا البحث هو التعليم في بلادنا.

لاشك أن التعليم قد قطع في بلادنا شوطاً كبيراً في تحقيق العديد من الأهداف، والوظائف، وإكساب الفرد الكثير من المعلومات والمعارف، وخاصة الديني منها، والذي يشغل حيزاً كبيراً في مناهج التعليم بمستوياته المختلفة بدءاً بما قبل المرحلة الابتدائية، وانتهاء بمراحل التعليم العالي.

إن هناك كثافة في المناهج الدينية في المراحل التعليمية المختلفة، تطبيقاً لما نصت عليه السياسة التعليمية في المملكة، في أن يكون الإسلام هو القاعدة التي يقوم عليها التعليم بأنواعه كلها، ومراجعه المختلفة، ووسائله وأجهزته، لإصلاح الفرد، والنهضة بالمجتمع، خلقياً وفكرياً، واجتماعياً، واقتصادياً[1].

---

(١) تراجع سياسة التعليم في المملكة والتي تقع في تمهيد وتسعة أبواب تحوي ٢٣٦ مادة.

فالسياسة التعليمية بأهدافها العامة والخاصة مثالية في صياغتها، مطابقة لروح الإسلام في أهدافها.

ولكن.. هل كان التطبيق العملي بمستوى الفكر النظري؟

الحقيقة.. إن التطبيق كان قاصراً، لم تراع فيه الوظيفة الأساسية للتربية الإسلامية، وهي تحقيق الإيمان الصحيح والعبودية لله - يقيناً داخلياً، لا تلقيناً خارجياً- علماً، وعملاً، وأخلاقاً، وسلوكاً. لا مجرد مناهج ومقررات تدرس بصورة علمية، جافة لا ارتباط لها بواقع الحياة المعاشة، ولا مراعاة فيها للعمر، والعقلية، والنفسية، والقدرة الاستيعابية لمتلقيها، وكأن الأصل في ذلك حشو الأدمغة بأكبر قدر من المعلومات الدينية، وإنهاء المقررات الدراسية فقط لا غير.

إن سوء التطبيق للسياسة التعليمية وأهدافها النبيلة، وما ترتب على ذلك من سوء النتيجة، كان له أسبابه المختلفة نذكر بعضاً منها مما نراه الأقوى تأثيراً وذلك على سبيل المثال:

١- طبيعة الدراسة التي تعتمد على الحفظ المجرد، دون

محاولة لتحريك مشاعر الطالب وأحاسيسه، وتعويده على استعمال ملكاته العقلية في التفكير والمناقشة، واستشعار البعد الإيماني لما يتلقاه، وربط ذلك كله بسلوكه الشخصي، وتصرفه العملي.

بحيث تكون هنالك استجابة نفسية وفطرية لما يتلقاه من علوم دينية، ودليل ذلك أنه على الرغم من كثافة العلوم الدينية وشمولها لأصول الإسلام وفروعه، التي يتلقاها الطالب منذ خطواته الأولى في طريق التعليم النظامي، إلى نهاية تعليمه العالي، وبخاصة في الكليات الدينية وأقسام الدراسات الإسلامية، لا نكاد نجد لها ذلك الأثر الواضح في فكر الطالب وعمله، وقبل ذلك كله في قلبه ومشاعره، حيث صب جُل اهتمامه على حفظ ما يقدم له من أجل اجتياز الامتحانات، والحصول على أعلى الدرجات. فقد أصبح الامتحان والدرجة والشهادة، هي الهم الأكبر للطالب وأهله، وإن كان ذلك بلا مضمون إيماني حقيقي.

٢- عدم مراعاة قدرات الطفل العقلية والاستيعابية ومستوى النضج العقلي - العمر الزمني والعقلي للطفل -

ومناسبتها لما يتلقاه من معلومات دينية، تقدم له غالباً بصورة جامدة، ومصطلحات صعبة لا يستطيع الطفل بقدرته الكلامية والعلمية المتواضعة معرفة معانيها، فضلاً عن استشعار مضامينها الإيمانية، وإنما يلزم بالحفظ المجرد لها، وإن كان لا يفقه منها شيئاً.

ولا يقتصر هذا على المواد الدينية، وإنما يمتد ليشمل القرآن الكريم الذي يلزم الطفل بحفظ الكثير من آياته وسوره وهو لا يفقه شيئاً منها، فضلاً عن ربط ذلك كله بالعقيدة الإيمانية، وتعميق حقيقة الإيمان بالله وترسيخه في القلب، بربط الطفل روحيـاً بربه، وغرس روح الخشوع والتقوى والعبودية الصادقة لله بصورة تناسب عقلية الطفل، وإدراكه، وسنه، (عمره العقلي والزمني).

وتربيته على أن الإيمان علم وعمل وأخلاق، ومراعاة الفروق الفردية بين الأطفال في القدرة على التلقي والاستيعاب.

٣- عدم أهلية كثير من المعلمين والمعلمات، وبخاصة في مراحل التعليم الأولى، والتي تعد الأساس الذي تبنى فيه شخصية الطالب وفكره، وعقيدته الإيمانية، حيث اقتصر عمل الكثير منهم على نقل المعلومة بحرفية من

الكتاب المقرر إلى الطالب، دون أن يكون لهم دور بارز في تأصيل المعاني الإيمانة في قلوب الناشئة، وتعميق صلتهم بربهم، بربط الطفل عملياً بربه من خلال المقررات الدراسية، أو بذل أدنى جهد في توجيه طلابه عقدياً وفكرياً، ونفسياً، وسلوكياً، وعاطفياً، تجاه المعاني الربانية.

وكما قال شوقي:

وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة

جاءت على يده البصائر حولا[1]

فالمدرس الذي يعد أحد الأركان المهمة في عملية التعليم، لأنه يملك الفرصة الكبرى في تكييف الطلاب وتوجيههم، بتأثيره الشخصي، وعلاقاته المباشره بهم، وما يبثه في طيات كلامه، من التوجيهات النافعة، هذا المدرس بهذه الأهمية لا تكاد كثير من الجهات التعليمية تأبه بإعداده وتأهيله علمياً، وفكرياً، وعقدياً. بل إن ما يؤلم أن من يوجه للعمل في سلك التعليم، وبخاصة التعليم الابتدائي الذي تبنى فيه الأسس والقواعد الإيمانية والعلمية، إنما هم ضعاف

(١) الديوان، م١، ج١/ ١٨٢.

المستوى من الخريجين وربما من لا يحمل القدرة العلمية والخبرة والدراية في طبيعة التعامل مع الطفل وتوجيهه. في حين أن الدول المتقدمة، تركز اهتمامها على مراحل الدراسة الأولى، حيث يقوم بالتعليم فيها أساتذة متخصصون ومؤهلون تأهيلاً عالياً.

٣ - المجتمع:

يعرف المجتمع بأنه: تجمع أفراد ذوي عادات متحدة، يعيشون في ظل قوانين واحدة، ولهم فيها مصالح مشتركة.

لكن الإسلام ينظر إلى المجتمع نظرة معنوية لا مادية، بمعنى أن العلاقات الاجتماعية بين أفراده تبنى على الروابط الأدبية من: تواد، وتراحم، ينطلق من قاعدة عقدية مرتكزها الإيمان بالله، والعمل لأجل الله، لا على أسس العلاقات المادية. أو المصالح الدنيوية فقط.

ومن ثم، فقد اهتم الإسلام ببناء المجتمع بصورة سليمة متماسكة، فكانت عنايته به لا تقل عن عنايته بالفرد، وذلك للتأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع، فما المجتمع إلا مجموعة من الأفراد جمعتهم رابطة معينة، وبالتالي فإن صلاح الفرد صلاح للمجتمع وصلاح المجتمع صلاح للفرد وتثبيت له.

فالمجتمع الصالح السليم، يهيئ الظروف لنشأة الأفراد بصورة سليمة: عقدياً، وفكرياً، وسلوكياً، وجسدياً، فإذا كانت الأسرة هي المحضن الأول، فإن المجتمع هو الأرض التي تحتضن الفرد وتغذيه بما يحتاجه للنمو والتكيف مع محيطه، إما بصورة صحيحة تجعل منه كياناً متكاملاً، وفرداً مستقيماً، نافعاً، وإلا نشأ ناقص الكيان، مهزوز الوجدان، قلق الفكر، متوتر النفس، حائر التوجه، لا نفع فيه لنفسه، ولا لأهله، ولا لمجتمعه، ولا لأمته، لأنه يحيا بين براثن التناقض العميق، بين ما يتلقاه من قواعد دينه، وأسس إيمانه، وما يراه ويعيشه من عادات وأفكار وتقاليد، انحرفت كثيراً، أو قليلا عن تلك الأسس والمبادىء الدينية.

ولأن الإنسان -المسلم- لا يستطيع أن يقوم وحده بتكاليف الرسالة، وأعباء الأمانة، وإعمار الأرض والاستخلاف فيها فقد كان الخطاب القرآني يأتي دائماً بصيغة الجمع﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ ﴿الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ بل إن القرآن علم الإنسان المسلم ورباه على التحدث بلسان الجماعة، والدعاء بصيغة الجمع.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[1].

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[2].

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٢٨٥ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[3].

فالفرد المسلم لا يجد الحياة المستقرة، والشعور بالأمن، وطيب العيش، والرضا النفسي، والإشباع الوجداني، إلا إذا عاش في مجتمع مسلم مبني على عقيدة صافية، ومنهاج قويم، وطريق واضح مستقيم يقوده إلى رحاب رب العالمين، وتتحقق فيه مقومات حمل الأمانة، والقيام بالخلافة على الأرض تحقيقاً لقول الله تبارك وتعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[4].

(١) سورة الفاتحة.
(٢) سورة البقرة: آية ٢٠١.
(٣) سورة البقرة: آية ٢٨٥-٢٨٦.
(٤) سورة آل عمران: آية ١١٠.

ذلك أن المجتمع الصالح السليم، يرسخ المبادئ الصحيحة، والعقيدة الصافية، والشعور بالمسؤولية في نفوس أبنائه، فهو -المجتمع- يرعى البذور التي غرسها الوالدان ويتعهدها وينميها، ويحفظها من الانحراف، أو الذبول تحت وطأة ركام أفكار وعقائد تهاجم المسلم من كل حدب وصوب بالوسائل كلها.

يقول الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي:

«هذه هي العقيدة التي يقوم عليها المجتمع المسلم:

عقيدة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، ومعنى قيام المجتمع المسلم على العقيدة الإسلامية: أنه يقوم على احترام هذه العقيدة وتقديسها، ويعمل على تثبيتها في العقول والقلوب، ويربي ناشئة المسلمين عليها، ويرد عنها أباطيل المفترين، وشبهات المضلين، ويجلي فضائلها وآثارها في حياة الفرد والمجتمع، عن طريق الأجهزة التوجيهية التي تؤثر على سير المجتمع من:

المساجد، والمدارس، والإذاعة، والتلفزيون، والمسرح، والسينما، والأدب بكل فنونه من: شعر ونثر، وقصص،

وتمثيل»[١].

أما إذا فقد المجتمع تلك الملامح التي تمثل من خلالها العقيدة الصحيحة تمثيلاً حقيقياً، فليس بمجتمع مسلم، يقول الدكتور القرضاوي:

« وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يجعل العقيدة على هامش حياته، فلا تأخذ من مناهج التربية والتعليم، ولا من مناهج الثقافة والفكر، ولا من مناهج الإعلام والإرشاد، ولا من أجهزة التوجيه والتأثير، بصفة عامة، إلا حيزاً ضئيلاً، وموضوعاً محدوداً، فليس هي الموجه الأول، ولا المحرك، ولا المؤثر الأول في حياة الأفراد، والأسر، والجماعات، وإنما هي شيء ثانوي يجيء في ذيل القافلة، وفي المكان الأخير إن بقي له مكان»[٢].

حقاً إن مثل هذا المجتمع لا يمكن أن يكون صالحاً بحال من الأحوال لتنشئة الأفراد وتعهدهم بالرعاية والإصلاح. لأنه فاقد لتلك المقومات كلها؛ بل إنه سيزيد من التناقض الذي يعيشونه» ويسهم في زيادة حدة الانحراف الذي

(١) ملامح المجتمع الذي ننشده ٢٣-٢٤.
(٢) المصدر نفسه ٢٦-٢٧.

يعانونه، لأنه همش العقيدة، ونحاها عن حياة الأفراد العملية، فلم يعد لها في نفوسهم إلا الانتماء النسبي، والإسلام لا يقبل الانتماء النسبي إليه.

بل إن الإسلام لا يقبل إلا الانتماء الإرادي المعلن فردياً، الانتماء الكامل قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً.

الواقع المعاصر يقول: إن المجتمع في البلاد الإسلامية لم يعد ممثلاً حقيقياً للإسلام، حيث فسدت في حسه مفهومات الإسلام كلها، ونحيت عن حياته، وتحول إيمانه من منهاج حياة كامل، إلى كلمة مجردة تردد بالأفواه. وشعارات ينادي بها عند الحاجة، وفقد التوازن الإسلامي الرائع في النفوس والأعمال. ولم يبق عندهم إلا إطار الاسم الخارجي (الإسلام) يتمسكون به، وهم يتوهمون أنهم يتمسكون بالإسلام، عقيدة، وشريعة، ومنهاج حياة، مبادئ، وقيماً وأخلاقاً.

حصروا الدين في نطاق ضيق من: نطق بالشهادتين، وأداء ظاهر للشعائر التعبدية، دون أن يكون لذلك أثره في الحياة العملية، والتطبيق العملي.

إنه غبش في فهم المعاني الإسلامية الصحيحة، في قلب

وعقل المجتمع المسلم اليوم، واختلال في البنية العقدية والفكرية والأخلاقية للمجتمع.

بل إن كلمة (إسلام) نفسها لم يعد لها ذلك التأثير العميق في ضمير المجتمع، وقلبه! ذلك التأثير الذي يوجه سلوك الفرد والجماعة، ويقوم عملهما، وأفكارهما، ومشاعرهما.

لقد حدث الفصال بين الروحي، والاجتماعي[1]، وغاب وافترق المبدأ عن الحياة، وانتقل هذا الفصال، والافتراق، والغبش، وسوء الفهم في الإيمان، والعلم، والعمل من المجتمع إلى الفرد، وأصبح الوسط الاجتماعي، يؤثر على الفرد المسلم تأثيراً سلبياً يجرده من أبعاده الإيمانية، ومثله العليا، ويهدم قيمه ومبادئه، فيفقد استقلاله الأخلاقي تحت سطوة قانون العدد -سير المجتمع-.

٤ - الإعلام:

لم تعد مهمة التربية في هذا العصر مقصورة على الوالدين، أو محيط الأسرة، وحدود المجتمع، وإنما تدخلت

(١) الفصال المقصود بين الروحي والاجتماعي: هو انفصال الإيمان بمقتضياته عن الحياة العملية للمجتمع.

فيها وسائط أخرى، أصبح لها دور مهم وأساسي في تشكيل عقلية الفرد ونفسيته، وتحديد معالم شخصيته؛ وإن كانت وسائل هذه الوسائط في غالبها غير مباشرة، ولكن أثرها وتأثيرها على المدى الطويل يظهر واضحاً جلياً في مواقف الفرد، واختياراته.

وفي مقدمة هذه الوسائط يأتي دور الإعلام بوسائله المختلفة من: مرئية، ومسموعة، ومقروءة، والتي تعمل مجتمعة، أو متفرقة على رسم إطار محدد للفكر، والوجدان، والشخصية، وتركيز بعض القيم والأهداف المقصودة.

فالإنسان المعاصر لم يعد بوسعه أن يكون مستقلاً فكراً، وتوجهاً، ومذهباً، لأنه خاضع لسيطرة قوية من قبل وسائل الإعلام المختلفة، والتي تحصره داخل دائرتها، وإطارها الذي لا يستطيع منه فكاكاً في غالب الأمر.

ومن ثم فإن الإعلام يمكن أن يوجه إلى الخير، أو إلى الشر، ويمكن كذلك أن يرسخ القيم الأصيلة، والمبادئ القويمة، أو أن يجتثها من جذورها، ويمسخ العقلية، ويهز النفسية تجاه موروثاتها، وأصالتها.

والمتتبع لمسيرة الإعلام بصورة عامة، والإعلام في البلاد الإسلامية- إلا من رحم الله- بصفة خاصة يجده يسير وفق فلسفة خطيرة في مضامينها، تعمل لا على تحطيم الأسس العقدية والمبادئ الدينية، والقيم الأخلاقية فحسب، بل تعمد إلى تجفيف منابعها الأصيلة، حتى لا تنشأ عقلية مسلمة، ولا نفسية مسلمة، وبالتالي لا تنشأ أمة مسلمة تقوم بأمر الله.

ومثل هذا الأمر لا يحتاج إلى مزيد عناء لإثبات صدقه، إذ يكتفى فيه بإلقاء نظرة عاجلة على الزخم الهائل الذي تضخه وسائل الإعلام المختلفة لتتأكد لنا خطورة الردة الفكرية التي يمارسها الإعلام بصورة واضحة، أو خفية، ويعمل على نشرها وتأصيلها لدى الأجيال المسلمة، من خلال عملية التضليل الفكري، التي تمارسها أيد لم تقم بأمانة المسؤولية، والتبعة الخطيرة إزاء الأخطار المحدقة بأمة الإسلام؛ فنجدها تعمل بصورة خفية مستترة تارة برداء براق متحمس لإنقاذ الأمة، وتارة تكون واضحة سافرة تقلب فيها الحقائق، وتقدم الأفكار الهدامة، والشخصيات المنحلة على أنها قدوة هذا العصر. في مقابل إقصاء أصحاب المقاصد الجادة، والأهداف النبيلة، والمبادىء السامية؛ إما بالتشكيك

فيهم وبما يحملونه من مبادىء، وما يسعون إلى تحقيقه من أهداف، أو بالحيلولة دون وصولهم إلى القاعدة العريضة من أبناء المجتمع بدعوى أنهم يدعون إلى الرجعية، وينادون بالتخلف، ويحاربون التقدم والتجديد.

والمهم، إن ما يعنينا هنا هو نجاح الإعلام من خلال ما يقدمه كله، في الوصول إلى صلب عقيدة المؤمن، وتوهين صلته بربه، وبالتالي إبعاده عن دائرة استشعاره لمعية الله له، مما سهل بعد ذلك عملية انحرافه عن منهاج ربه، لتلقي به في خضم التيارات الفكرية، والعقدية الوافدة من كل مكان، بما تحمله من ركام هائل من الانحراف، والضياع، والتخبط، تجعل الفرد المسلم يعيش أجواء من التشوش الفكري، والغبش العقدي، الذي ينعكس على حياته العملية، وسلوكه اليومي، دون أن يشعر في كثير من الأحيان ببعده عن الصفاء العقدي، مما يجعله يتعامل مع معطيات دينه وتعاليم شرعه بنوع من التبلد الإيماني الذي يفقده الرؤية الواضحة في التمييز بين حدود: الحلال والحرام، المباح والمكروه، وبذلك يضعف في قلبه الإيمان الصادق العميق، الذي يربطه بربه عقيدة، وفكراً، وسلوكاً، فيضيء له نفسه، وينقل نور إيمانه إلى حياته فتضيء له طريقه ليرى بوضوح ما

حوله كله، فيمضي مستقيماً، آمناً، واثقاً، محققاً الهدف الذي خلق من أجله. وإذا ضعف الإيمان في قلب المسلم لعبت به الشكوك، وأدركه العجز، وأدى به ذلك إلى موت الضمير، فيتعثر في طريقه ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1]، ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

وخلاصة ما ننتهي إليه هو أن الشرخ الكبير الذي حدث في عقلية ونفسية الفرد المسلم، قد أبعده عن استشعار حقيقة دينه، وأبعاد عقيدته، وأصاب إيمانه بالضعف والوهن، وغيب عنه حقيقة معية الله له، وذلك كله محصلة حقيقية لما يقدمه له البيت، والمدرسة، والمجتمع والإعلام من مفهومات مغلوطة ومبادىء متناقضة، وأفكار مشوشة، زلزلت أعماقه، وانعكست بآثارها المدمرة على واقع حياته العملية، مما أوهن إحساسه بالمسؤولية تجاه: ربه، ودينه، ونفسه، ومجتمعه، وأخيراً تجاه أمته.

هذا ما سنبينه بإذن الله في الفصل التالي.

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٢٢.
(٢) سورة الملك: آية ٢٢.

الفصل الثاني

المسؤولية الإنسانية

المسؤولية كلمة يكثر ترديدها في معظم المناسبات، وتستخدم في التعبير عن معاني مختلفة؛ فقد تستخدم للدلالة على مجرد تبني العمل، وإن خلا ذلك من الإلزام الداخلي، أو الالتزام الخارجي؛ وذلك عند التوسع في استعمال هذه الكلمة (المصطلح)، وهذا هو المعنى الذي صار ينصرف إليه الذهن مباشرة عند إطلاق كلمة (مسؤول).

وإن كان هذا المعنى هو أحد معاني الكلمة، ومشتقاتها، إلا أنه لا يخلو أبداً من معناها الأصلي الذي لا يستطيع منه فكاكاً لارتباطه بها من الناحيتين: الشرعية، واللغوية.

ومفهوم المسؤولية الإنسانية يفترض فيها أنها صادرة عن إلزام صارم، فإن لم يكن كذلك فعلى الأقل أن تكون صادرة عن: الفكرة المعادلة لمثل أعلى بحيث يرى الإنسان أنه مسؤول عنه أمام نفسه.

والحقيقة أن كل لحظة من لحظات حياة الإنسان تتجسد فيها المسؤولية بصورة ما، وهنا يتحقق حمل الأمانة التي

أشفقت منها مخلوقات الله، وحملها الإنسان ليتهكها في كثير من المواضع، والمواقف، قال تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (١).

وقبل الاسترسال في الحديث عن المسؤولية، ومعرفة أبعادها، يحسن بنا التعرف على معنى الكلمة في اللغة والاصطلاح.

المسؤولية في اللغة:

مأخوذة من الفعل (سأل) بمعنى: طلب، أو استعطى، أو استدعى.

ومنها: المسؤول: اسم مفعول، وتأتي بمعنى: المطلوب منه، والمحاسب عليه.

ومنها قوله تعالى﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾-سورة الإسراء/ آية٣٤-، وقوله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾- سورة الصافات/ آية ٢٤- (٢).

(١) سورة الأحزاب: آية٧٢.

(٢) انظر: الزبيدي، تاج العروس، م٧، باب (اللام)، فصل (السين)، ٣٦٧، ابن منظور، لسان العرب، م١١، باب (اللام)، فصل (السين المهملة)، ٣١٨-٣١٩.

ومنها (المسؤولية): حال، أو صفة من يُسأل عن أمر تقع عليه تبعته[1].

فالمسؤولية: هي التي يكون بها الإنسان مطالباً بأمور، أو أفعال أتاها.

ومن الناحية الأخلاقية هي: التزام الشخص بما يصدر عنه قولاً، أو عملاً[2].

أما المعنى الشرعي للمسؤولية فهو:

إن الإنسان المكلف يُسأل عن الأشياء التي جعل الله له سلطاناً عليها، أو قدرة على التصرف فيها، بأي وجه من الوجوه، أو قدرة تأثير: بقوة، أو عمل، أو تفكير.

وتنحصر مسؤولية الإنسان في حدود قدرته واستطاعته، قال تعالى ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3]، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾[4]، ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[5].

(١) المعجم الوسيط، ج١، باب السين، ٤١١.
(٢) المصدر نفسه، ج١، باب السين، ٤١١.
(٣) سورة النحل: آية ٩٣.
(٤) سورة الصافات: آية ٢٤.
(٥) سورة الإسراء: آية ٣٦.

وقال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عنه» -رواه عبد الله بن عمر-(1).

وحديث الرسول ﷺ هذا يبين لنا المعنى الشرعي الحقيقي للمسؤولية، والتي تعني أن المسؤولية تشتمل على علاقة مزدوجة من ناحية الفرد المسؤول، علاقته بأعماله، وعلاقته بمن يحكمون على هذه الأعمال.

---

(1) - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، م٢/ كتاب الجمعة١١/ باب الجمعة في القرى والمدن ١١/ ٨٩٣/ ٣٨٠، م٣/ كتاب الجنائز ٢٣/ باب يعذب الميت ببعض ٣٢/ ١٥٠، م٥/ كتاب الاستقراض ٢٠/ باب العبد راع في مال سيده/ ٦٩/٢٤٠٩، كتاب الوصايا ٩/ باب كراهية التطاول على الرقيق ١٧/ ٢٥٥٤/ ١٧٧، باب العبد راع في مال سيده ١٩٥/ ٢٥٥٨/ ١٨١، م٩، كتاب النكاح ٦٧/ باب قوله تعالى ﴿قوا أنفسكم﴾ ٨١/ ٥١٨٨/ ٢٥٤، باب المرأة راعية في بيت زوجها ٩٠/ ٥٢٠٠/ ٢٩٩.

- صحيح مسلم بشرح النووي/ م٦/ ج١٢/ كتاب الإمارة/ باب فضيلة الأمير العادل/ ٢١٣.
- أحمد/ المسند/ ٢/ ٥، ٥٤، ٥٥، ١٠٨، ١١١، ١٢١.
- أبو داوود/ م٢/ كتاب الخراج والفيء والإمارة ١٤/ باب ما يلزم الإمام في حق الرعية/ ٢٩٢٨/ ١٤٥.
- الترمذي/ ج٤/ كتاب الجهاد ٢٤/ باب ما جاء في الإمام ٢٧/ ١٧٠٥/ ٢٠٨.

فكون الإنسان مسؤولاً يعني أنه مكلف بأن يقوم ببعض الأشياء، وبأن يقدم عنها حساباً إلى من كلفه بهذا الأمر .

فمسؤولية الإنسان أمام نفسه، أو أمام غيره، أو أمام الله سبحانه وتعالى، هي مسؤولية صادرة من مصدر الحكم الأصلي ألا وهو الله جلّ وعلا . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى، فإن حديث الرسول ﷺ يلقي الضوء على أن المسؤولية ليست نوعاً واحداً، لكنها مسؤوليات مختلفة منها : الفردي الشخصي، والاجتماعي العام، والأخلاقي، والسياسي، والمالي، وغيرها من المسؤوليات التي تنتهي جميعاً لتصب في خضم المسؤولية الدينية، التي هي أصل كل شيء، وأساسه؛ فحديث المصطفى ﷺ بين أن المسؤولية المنوطة بكل راع تتسع، أو تضيق وفق مقدار دائرة الرعاية المنوطة به، وبمقدار سلطته فيها .

وهذا، ما سنعالجه بشيء من التفصيل في المباحث القادمة بإذن الله .

المبحث الأول

أقسام المسؤولية وشروطها

تتحقق المسؤولية حين تتعدد الإمكانات والبدائل، والاختيارات في الفعل والترك؛ ودائرة الامكانات والاختيار تتسع وتضيق وفق الإطار الذي يتحرك في حدوده هذا الإنسان، أو ذاك. ومن هنا كانت حدود المسؤولية تختلف باختلاف الإنسان المسؤول؛ فالإسلام يحمل كل إنسان مسؤولية عمله في حدود قدرته، وظروفه، وموقعه في مجتمعه.

ففي حين تضيق مسؤولية بعض الأشخاص إلى درجة لا تتجاوز تصرفاتهم الشخصية، تتسع مسؤولية البعض الآخر لتشمل الأمة الإسلامية بمجموعها.

وقد كان حديث الرسول ﷺ الذي قال فيه: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها. والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عنه»[1].

(١) سبق تخريجه.

هذا الحديث النبوي الشريف كان هو الأساس الذي استنبط منه علماء المسلمين مستويات المسؤولية، وحددوا أقسامها وفقه، وبينوا حدود كل قسم، وشروط تحققه.

فكان أن قسمت المسؤولية في الإسلام إلى أقسام ثلاثة هي:

١ - المسؤولية الفردية.. وهي أخلاقية شخصية.

٢- المسؤولية الاجتماعية.. وهي مسؤولية عامة.

٣- المسؤولية الدينية.. وهي أساس كل من المسؤولية الشخصية والمسؤولية الاجتماعية..

وقد اجتمعت المسؤوليات الثلاث في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

فالمسؤولية أخلاقية شخصية كانت، أم اجتماعية فإنها تنتهي في خضم المسؤولية الدينية التي تلزم الإنسان نتيجة عمله واختياره﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[2].

ومن هنا وجب أن تنتهي كل مسؤولية إلى المسؤولية

(١) سورة الأنفال: آية ٢٧.
(٢) سورة المدثر: آية ٣٨.

الدينية، أو تتبعها على أقل تقدير؛ ذلك أن الالتزامات الفردية، أو الاجتماعية لا يمكن أن تكون مصدراً للتكليف والمسؤولية - هذه المعاني ستتضح أبعادها عند الحديث عن المسؤولية بشقيها الشخصي، والاجتماعي-، وتقسيم المسؤولية بهذا الشكل لا يعني وجود فصام بين هذه الأنواع الثلاثة؛ ذلك أن المسؤولية في الإسلام تمتد من الفرد إلى الجماعة فالأمة فالناس كافة، في نظام متناسق كامل مترابط، يوحد الجهود، ويحقق الأهداف.

فالمسؤولية الفردية لا تتعارض مع مسؤولية الجماعة والأمة، ومسؤولية القيادة والسلطان؛ لكنها تتناسق وتتكامل جميعاً حتى تكون كل مسؤولية منها أوضح وأقوى، فمنهاج الله هو المصدر الذي حدد مسؤولية الفرد، ومسؤولية الجماعة ومسؤولية الأمة، وهو الذي وازن بينها، ونسق وربط بينها، بصورة لا تلغي أياً منها، وإنما تقويها وتبرزها.

وهذا التقسيم الشرعي للمسؤولية هو نفسه الذي جعل لكل منها مستوى خاصاً به يقل أو يكثر، يهون أو يعظم، وفق طبيعة القسم الذي يرجع إليه، والعمل الذي يمثله.

وحتى تتحقق المسؤولية بأكمل صورها، فقد حرص

الإسلام على وضع شروط خاصة لابد من توفرها لتحقق المسؤولية الإنسانية بأقسامها الثلاثة: الشخصية، والاجتماعية، والدينية؛ وبمستوياتها المرتبطة بها.

وهذه الشروط هي[(١)]:

الشرط الأول:

الأهلية.. وتتحقق بالعقل والبلوغ، فالفهم، والإدراك والقدرة على التمييز شرط أساسي لازم لتحمل المسؤولية؛ ففاقد العقل لا مسؤولية عليه؛ في حين أُعفي من كان دون البلوغ من المسؤولية الأخروية، وخُفّفت في حقه المسؤولية الدنيوية لأنه في فترة التربية والتأديب قال تعالى﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[(٢)]. وقال ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المجنون حتى يعقل، أو يفيق» -روته أم المؤمنين عائشة-[(٣)].

(١) - لمزيد من التفصيل انظر:
محمد عبد الله دراز(د)، دستور الأخلاق في القرآن، ١٤٨-٢٤٢، عبدالرحمن الميداني(د)، الأخلاق الإسلامية وأسسها/ ١/ ١١٦ وما بعدها، عبد الحميد الصيد الزنتاني(د)، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن والسنة، ٤٣٤- ٤٤٠.

(٢) سورة المؤمنون: آية ٦٢.

(٣) ابن ماجه، السنن/ م١/ كتاب الطلاق ١٠/ باب طلاق المعتوه والصغير والنائم ١٥/ ٢٠٤١/ ٦٥٨.

الشرط الثاني:

القدرة والاستطاعة.. إما بالفعل، أو الترك، فلا مسؤولية مع العجز عن الفعل، أو عن الترك، فالتكليف متناسب مع القدرة والاستطاعة. ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[1]، ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾[2]. وقال ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه» -رواه ابن عباس-[3].

الشرط الثالث:

الحرية والاختيار.. وهو أن يكون عند إقدامه على العمل، أو امتناعه عنه حراً مختاراً، غير مكره عليه، أو مقهور عليه، أو مغلوب على أمره؛ بل يكون فاعلاً له بكامل حريته، واختياره، وإرادته القلبية، حتى يتحقق تحمل المسؤولية كاملة، فلا ترتفع المسؤولية عن المكره إذا وافقت إرادته القلبية العمل الذي أُكره عليه، وذلك أن الإكراه لا يستطيع أن يصل إلى إرادة القلب وتحويلها عما هي عليه إلى

(١) سورة البقرة: آية ٢٨٦.
(٢) سورة الطلاق: آية ٧.
(٣) ابن ماجه، السنن/م١/ كتاب الطلاق ١٠/ باب طلاق المكره ١٦/٢٠٤٥/٦٥٩.

أمر آخر. قال ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه».

الشرط الرابع:

أن يكون العمل إرادياً.. أي صادر عن إرادة حرة متوجهة نحو الفعل إيجاباً بالعمل، أو سلباً بالترك مع القدرة على ذلك. فهو مسؤول عن إيجابيته، أو سلبيته.

الشرط الخامس:

النية والقصد.. وهي عزيمة القلب.. فالعمل المنوط بالمسؤولية هو العمل الذي يكون القصد إليه كاملاً، وهذا يعني الارتباط الوثيق بين النية والمسؤولية.

وبذا، فقد كانت النية في الشريعة الإسلامية هي مناط المسؤولية، ومناط الجزاء؛ فقيمة العمل تحدد بأصل النية الباعثة عليه، فالعبرة بأصل النية لا بظاهر العمل، قال تعالى ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(١). ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٢).

(١) - سورة البقرة: آية ٢٢٥.
(٢) - سورة الأحزاب: آية ٥.

وقال ﷺ : - «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» -رواه عمر بن الخطاب-[1] .

فالنية هنا هي : انبعاث القلب نحو ما يراه موافقاً لغرض من جلب نفع ، أو دفع ضر حالاً، أو مآلاً .

لذا، فإن النصوص الشرعية تؤكد على أن الإنسان محاسب على نيته، إما بالثواب إن كانت خيراً، أو بالعقاب إن كانت شراً، حتى وإن لم تترجم هذه النية إلى عمل، ولكن شريطة أن تكون هذه النية جازمة، وأن يكون مصمماً على تنفيذها، ولم تصرف بنية أخرى، وإنما الذي حال دون ترجمتها إلى عمل مانع خارجي قوي؛ فالنية المصحوبة

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري/ م١/ كتاب بدء الوحي ١/ باب كيف كان بدء الوحي ١/ ٩، م٩/ كتاب النكاح ٦٧/ باب من هاجر أو عمل ٥/ ٥٠٧٠/ ١١٥.

- أحمد، المسند/ م١/ ٢٥ . يعد هذا الحديث أحد القواعد الثلاث التي ترد إليها جميع الأحكام عند الإمام أحمد، وهي : ١«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» . ٢«الحلال بين والحرام بين» . ٣«إنما الأعمال بالنيات» .
- صحيح سنن النسائي/ م١/ كتاب الطهارة ١/ باب النية في الوضوء ٦٠/ ٧٣/ ١٧.

بإرادة وتصميم ومحاولة للتنفيذ، تكون مناطاً للمسؤولية والحساب، وإن لم تنفذ بعمل، بدليل قوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» فقلت: يارسول الله: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» -رواه أبو بكرة-[1].

وقال ﷺ: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئةواحدة» -رواه ابن عباس-[2].

(١) - فتح الباري شرح صحيح البخاري/ م١/ كتاب الإيمان ٢/ باب «وإن طائفتان من المؤمنين» ٢٢/ ٣١/ ٨٤-٨٥.
- مسلم/ م١١/ كتاب القسامة/ باب صحة الإقرار بالعمل/ ١٧٤.
- ابن ماجه/ السنن/ م٢/ كتاب الفتن ٣٦/ باب إذا التقى المسلمان١١/ ٣٩٦٣-٣٩٦٥/ ١٣١١.
- أحمد/ المسند/ م٤/ ٤٠١, ٤١٨، م٥/ ٤٣, ٤٧, ٤٨.
- أبو داود / السنن/ م٢/ كتاب الفتن والملاحم ٢٩/ باب النهي عن القتال ٥/ ٤٢٦٨/ ٥٠٤.
- صحيح النسائي/ م٣/ كتاب تحريم الدم ٣٧/ باب تحريم القتل ٢٩/ ٣٨٣٦-٣٨٤٤/ ٨٦١-٨٦٢.

(٢) - فتح الباري شرح صحيح البخاري/ م١١/ كتاب الرقائق ٨١/ باب من هم بحسنة ٣١/ ٦٤٩١/ ٣٢٣.
=

والخلاصة: إن النية الجازمة وحدها هي مناط المسؤولية، سواء رافقها عمل، أم لم يرافقها؛ ولا يدخل ضمن ذلك حديث النفس، والخواطر، الوساوس المعفو عنها، ولا النيات غير الجازمة التي لا ترقى إلى مستوى الهم.

الشرط السادس:

العلم بالعمل.. فالمسؤولية تتحقق إذا علم الإنسان بحقيقة ما يعمل، وما يؤدي إليه عمله من نتائج خيرة كانت، أم سيئة، وعلم بحكم العمل الشرعي والأخلاقي، وفهم حقيقته، وعرف أمره، وبلغه بوضوح؛ فهو يتحمل مسؤولية ذلك كاملة في مجال: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والعلاقات، والمعاملات، وما إلى ذلك..

وفي المقابل لا مسؤولية على الإنسان فيما جهله، أو لم يبلغه علمه، دون تقصير منه -الجهالة التي يعذر صاحبها- قال تعالى﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ

= - مسلم/ م٢/ كتاب الإيمان/ باب بيان تجاوز الله عن حديث النفس ١٤٧-١٥٠.

- الدارمي/ السنن/ م٢/ كتاب الرقائق ٢٠/ باب من هم بحسنة /٧٠ /٢٦٨٤ /٧٧٧.

- أحمد/ المسند/ م١/ ٢٢٧، ٢٧٩، ٣١٠، ٣٦١، م٢/ ٢٣٤، ٤١١، ٤٩٨، م٣/ ١٤٩.

عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1].

فمتى توفرت هذه الشروط في الإنسان فقد أصبح مسؤولاً مسؤولية كاملة عما يصدر منه كله من: نية، أو قول، أو عمل، مسؤولية شخصية، وعامة في إطار المسؤولية الدينية.

وهذا، ما سنتبينه بإذن الله في المبحثين التاليين.

(١) سورة النساء: آية ١٦٥.

المبحث الثاني

المسؤولية الشخصية

اهتم القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة بتأصيل مفهوم المسؤولية الشخصية، وبيان أبعادها المادية والمعنوية، وتحديد حدودها الإنسانية، بصورة تجعل الإنسان مسؤولاً مسؤولية شاملة لجوانبه المادية والمعنوية كلها: جوارحه، بدنه، روحه، عقله، علمه، عمله، وقته، عمره، ماله، لا تنفك عنه لحظة واحدة؛ فهو مسؤول عن نفسه مسؤولية كاملة يجني ثمارها إن أحسن بالثواب، وإن أساء بالعقاب، وهي مسؤولية لا يشاركه في حملها أحد غيره، قال الله تعالى ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1].

ويوضح تفاصيل ما يحويه هذا الكتاب الذي أشارت إليه

(١) سورة الإسراء: آية ١٣-١٥.

الآيات الكريمة قول المصطفى ﷺ: «لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن: عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه» -رواه أبو برزة الأسلمي[1]. ومسؤولية الإنسان الشخصية لا تقتصر على حدود الأمور المادية، والأفعال الظاهرة، لكنها تتجاوزها إلى ما هو أبعد من ذلك.. ألا وهو ما يحمله في داخل نفسه من: نيات، وملكات، وقدرات، و.... إلى عمره، وغير ذلك. قال الله تبارك وتعالى﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[2].

ومن هنا نستطيع أن نقسم المسؤولية الشخصية إلى أربعة أقسام هي:

١- أعمال القلوب.

٢- أعمال الجوارح.

(١) الترمذي، الجامع الصحيح - السنن، ج٤، كتاب صفة القيامة٣٨، باب القيامة ١/ ٢٤١٧/ ٦١٢. وفي رواية ابن مسعود: (لاتزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس عن: عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيم علم).

(٢) سورة الإسراء: آية ٣٦.

٣- العمر (الوقت).

٤- حدود المسؤولية.

القسم الأول: أعمال القلوب

ونبدأ بها.. لأنها الأساس لعمل الإنسان كله، وهي مناط الجزاء: مثوبة، أو عقاباً.. ومن ثم فقد كانت هي المسؤولية الأولى، وما عداها فهو انعكاس لها؛ فأقوال الإنسان، وأفعاله، وأفكاره، ومشاعره، وإدراكه، إنما هي الصورة المعبرة عن حقيقة ما يعتمل في داخله، وهو مرتبط به سلباً وإيجاباً.

وحقيقة ما في النفس هي النية، التي قررها الإسلام قاعدة لانطلاقة الإنسان العملية بمظاهرها المختلفة، (فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء)[1].

لأجل هذا، فقد ركز الإسلام تركيزاً كبيراً على تربية المسلم على تحمل المسؤولية الخلقية، من خلال تكوين

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، م٤/ ج١٤/ كتاب النية والإخلاص والصدق/ ٢٦٨٤.

الضمير الأخلاقي المبني على أساس الالتزام الداخلي الذي يغرس روح المسؤولية، ويعززها حتى تصبح طابعاً ذاتياً نابعاً من داخل النفس لا من سلطة خارجية قد يغيب بغيابها، أو يضعف بضعفها، فتحركه للقيام بواجبات التكاليف الشرعية والدنيوية، بسهولة ويسر دون تكلف، أو تصنع، أو مراعاة لأحد، أو مراءاة له ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1].

قال ﷺ: «مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالاً وعلماً، فهو يعمل بعلمه في ماله، ينفقه في حقه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو يقول: لو كان لي مثل هذا، عملت فيه مثل الذي يعمل» قال ﷺ: «فهما في الأجر سواء. ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يخبط في ماله، ينفقه في غير حقه. ورجل لم يؤته الله علماً ولا مالاً، فهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل» قال ﷺ: «فهما في الوزر سواء» -رواه أبو كبشة الأنماري-[2].

---

(١) سورة الملك: آية١٣.

(٢) ابن ماجة/ السنن/ م٢/ كتاب الزهد ٣٧/ باب النية ٢١/ ٤٢٢٨/ ١٤١٣.
- الترمذي/ الجامع الصحيح/ كتاب الزهد٣٧/ باب ماجاء مثل الدنيا ١٧/ ٢٣٢٥/ ٥٦٢-٥٦٣، وفيه تفصيل، ونص على النية.

فالنية، أو ما تخفيه الصدور أمر لا يطلع عليه إلا الله، لذا، فقد كان التركيز عليه أصلاً في القبول، أو الرفض، وفي الثواب، أو العقاب؛ قال ﷺ: «يبعثون على نياتهم»[1]، «يبعثهم على نياتهم»[2]، «يحشر الناس على نياتهم»[3].

ومن ثم فقد كان الإخلاص في أعمال القلوب، هو روح الدين، ولباب العبادة؛ ويقصد به طرح المآرب الدنيوية الصغيرة، بالتوجه القلبي الكامل إلى رب العالمين، وإرادة وجهه الكريم، دون اكتراث برضى الناس، أو سخطهم، أو تحر لتحقيق رغبة، أو هوى.

ومن ثم فإن الإسلام لا يعتد بأي عمل كان إلا إذا خلص لله وحده؛ وعليه فقد جعله -الإخلاص- مناط المسؤولية الكبرى. فالإنسان مسؤول مسؤولية حقيقية عن أعمال

(١) فتح الباري/ م٤/ كتاب البيوع ٣٤/ باب ماذكر في الأسواق ٤٩/ ٢١١٨/ ٢٣٨، جزء من حديث طويل.
(٢) صحيح مسلم/ م٩/ ج١٨/ كتاب الفتن/ ٧.
(٣) ابن ماجه/ السنن/ م٢/ كتاب الزهد ٣٧/ باب النية ٢١/ ٤٢٢٩ - ٤٢٣٠/ ١٤١٤.

قلبه[1] -العبادات القلبية- وأساسها:

الإيمان..

ويقصد به الإيمان بالله إيماناً حقيقياً، جازماً، على بصيرة، وعن بينة يجعل المؤمن يقوم بمقتضيات هذا الإيمان بثبات، وعزم، وحزم ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[2]. لا مجرد العلم، أو إيمان التقليد، والوراثة﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[3].

فمن قال: أنا أعبد الله، ولم يتصف بحقيقة العبودية، وكان له مطلب سوى الله، لم يكن إيمانه صادقاً؛ والعبد الحقيقي لله، هو الذي انعتق من عبودية غير الله، فكان حراً

(١) نلفت نظر القارئ إلى الفارق بين أحوال القلوب كالحب، والبغض، والفرح، والحزن، وغيرها من الأمور التي لا يملكها الإنسان، وبالتالي فهو لا يسأل عنها. وهذا ما عناه الرسول ﷺ في قوله: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»- أبو داوود/ السنن/ م٢/ كتاب النكاح ٦/ باب في القسم بين النساء ٣٧-٣٨/ ٢١٣٤/ ٦٤٨-٦٤٩. أحمد/ المسند/ ٦/ ١٤٤. وفيه «اللهم هذا فعلي فيما أملك...» الحديث. وأعمال القلوب التي هي محل المسؤولية مثل: الإيمان، والإخلاص، والرياء، والنفاق، والشرك بالله أكبره، وأصغره.

(٢) سورة البينة: آية ٥.

(٣) سورة الزخرف: آية ٢٢.

طليقاً في عبوديته لله، فكل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس، ويميل إليه القلب، قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه، وزال به إخلاصه. لذا فقد كانت النية هي روح العمل، والعمل بغير نية صادقة لله، رياء وتكلف. فالإيمان الصادق الصحيح الحقيقي، هو: أن يعبد الإنسان ربه، ويستقيم في عبادته، ولا يعبد هوى نفسه ولا رضى غيره[1].

فالطاعة قد تنقلب إلى معصية إذا داخل النية والقصد رياء، أو سمعة، أو طلب حظوة عند إنسان، أو أي أمر دنيوي، ولم يقصد بها وجه الله وحده[2]، ذلك أن كل عمل -حركة كان، أو سكوناً، قولاً كان أو فعلاً- لا يتم إلا بأمور ثلاثة هي: العلم، والإرادة، والقدرة.

فالإنسان لا يريد مالم يعلم، ولا يعمل بما لم يرد، والإرادة هي: انبعاث القلب إلى ما يراه موافقاً للغرض[3].

ولأن هذه القضية أمر دقيق خفي، قد لا يتنبه إليها كثير من الناس على الرغم من خطورتها، وتأكيد الشارع عليها؛

(١) الغزالي/ إحياء علوم الدين/ م٤/ ج١٤/ ٢٧١٤، ٢٧٢٥ (بتصرف).
(٢) انظر: الفصل الأول/ الانحرافات العملية، ٣٨-٥٣.
(٣) الغزالي/ الإحياء/ م٤/ ج١٤/ ٢٦٨٩.

فإنا نجدهم يتهاونون بها ظناً منهم بأن مسؤولية الإنسان تكون على ما وقع من الفعل المادي فقط، وهذا سوء فهم لحقيقة مسؤولية الإنسان عن أعمال قلبه؛ فجهل الإنسان بحقيقة هذا الأمر قد ينزلق به في مهاوي الشرك الخفي الذي وصفه المصطفى ﷺ بقوله: «الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليل المظلم، وأدناه أن يحب الشيء من الجور، ويبغض على شيء من العدل؛ وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله؟ قال الله تعالى﴿قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ -سورة آل عمران/ آية٣١-» روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها-[1].

وهذا النوع من الشرك الخفي المتعلق بأعمال القلوب هو الذي خاف منه الرسول ﷺ على أمته فقال: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» -رواه محمود بن

(١) مسند أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها/ تأليف: الحافظ جلال الدين السيوطي/ ٥٢٧/ ٢٠٩.

لبيد-[1].

وقوله ﷺ: «أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية» قال: قلت يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: «نعم أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون بأعمالهم. والشهوة الخفية أن يصبح الرجل صائماً فتعرض له شهوة فيترك صومه» -رواه شداد بن أوس- وفي رواية أخرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك»[2].

وفي سنن ابن ماجة عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أتخوف على أمتي الإشراك بالله. أما إني لست أقول يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً، ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية»[3].

وعن أبي سعيد الخدري قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال: «ألا أخبركم بما هو

(١) أحمد/ المسند/ م٥/ ٤٢٨.
(٢) أحمد/ المسند/ م٤/ ١٢٤، ١٢٦٦.
(٣) م٢/ كتاب الزهد٣٧/ باب الرياء والسمعة ٢١/ ٤٢٠٥/ ١٤٠٦.

أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال» قال: قلنا: بلى فقال: «الشرك الخفي: أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»[1].

وتتسع دائرة المسؤولية عن نية الإنسان لتشمل ما هو أعمق من الصور التي ذكرتها الأحاديث النبوية السابقة، فهنالك أمور تختلط فيها النية، فتكون المسؤولية الجسيمة؛ لأن الأصل فيها أن توجه إلى الله سبحانه وتعالى وحده، لا يشاركه فيها أحد من خلقه، فإن داخلها الشراكة، أو شابتها شائبة فقد انتفت؛ وهي من الأمور التي يقع فيها كثير من المسلمين دون أن يشعروا بأنهم يحيدون فيها عن الطريق المستقيم في صرف أعمال القلوب لله وحده؛ ومتى ما حاد القلب فيها عن طريق الله، زلت به القدم فهوت به في مهاوي الشرك الخمي، والذي قد يكون شركاً أصغر في بدايته لكنه ما يلبث أن يتحول إلى شرك أكبر، واتخاذ الند لله. قال تعالى ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2].

(١) ابن ماجه، السنن، م٢/ كتاب الزهد ٣٧/ باب الرياء والسمعة ٢١/ ٤٢٠٤/ ١٤٠٦.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٢.

عن عبد الله قال: سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»[(١)].

يقول الإمام ابن القيم: «وأما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقل من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله، أو نوى شيئاً غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه، فقد أشرك في نيته وإرادته»[(٢)].

ويتحقق ذلك في صور مختلفة يأتي في مقدمتها:

١ـ المحبة..

ويقصد بها محبة الله تعالى محبة صادقة، ومحبة ما يحبه الله ويرضاه كله، ومن تمكنت من قلبه محبة الله لم تنبعث جوارحه إلا في طاعة الله، فلم يخضع إلا لله، ولم يؤثر إلا رضاه.

لذا، فقد وصفت المحبة بأنها: حقيقة العبودية،

---

(١) - فتح الباري/ م٨/ كتاب التفسير٦٥/ تفسير سورة البقرة٢/ باب قوله تعالى ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ ٣/ ٤٤٧٧/ ١٦٣.
- مسلم/ م١/ ج٢/ كتاب الإيمان/ باب بيان كون الشرك أقبح الذنوب/ ٨٠.
- صحيح النسائي/ ج٣/ كتاب تحريم الدم ٣٧/ باب ذكر أعظم الذنب٤/ ٣٧٤٧-٣٣٧٤٩/ ٨٤٣.

(٢) الداء والدواء/ ٢٠٨.

لأنها: روح كل مقام ومنزلة وعمل . . . وهي حقيقة الإخلاص[1] .

ولكن متى ما توجه هذا الحب، أو شيء منه إلى غير الله وبصورة لم يشرعها الله، فقد قارف الإنسان الشرك، ووقع في المعصية، لأن هذا الحب سيدفعه إلى تحري رضى المحبوب، والخضوع له، ولو فيما يسخط الله ويغضبه، قال تعالى﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾[2] .

«فمن أعطى حبه وذله، وخضوعه لغير الله فقد شبهه به في خالص حقه»[3] . ذلك أن المحبة تقتضي الموافقة وتستدعيها، وهي الأصل في تصرفات الإنسان، كما أنها الأصل في كل دين، يقول ابن القيم -رحمه الله- : «وكما أن المحبة والإرادة أصل كل فعل كما تقدم؛ فهي أصل كل دين سواء كان حقاً أم باطلاً، فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة، والمحبة والإرادة أصل ذلك كله» إلى أن يقول: «والدين الباطن لابد فيه من الحب والخضوع كالعبادة

(٣) ابن قيم الجوزية/ مدارج السالكين/ ٣/ ٢٦ .
(٢) سورة البقرة: آية ١٦٥ .
(٣) ابن قيم الجوزية/ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي/ ٩٥ .

سواء، بخلاف الدين الظاهر فإنه لا يستلزم الحب، وإن كان فيه انقياد وذل في الظاهر»[1].

٢ - الخشية والخوف[2]:

عبادة قلبية ينبغي أن لا توجه إلا لله، ينفرد ويختص بهما سبحانه بحيث لا يخاف الإنسان في السر والعلن إلا من الله وحده؛ فمن خاف من غير الله، أو خشيه، أو ظن أنه يقدر على أن يصيبه بضر، أو مكروه بمشيئته الخالصة، وقدرته الإنسانية، فقد وقع في الشرك الأكبر؛ لأنه اعتقد الضر والنفع في غير الله، ذلك أن الخوف لا يقصد لذاته وإنما لغيره، لذا، فهو يزول بزوال المخوف. والخوف عبادة قلبية لا تصرف لغير الله، قال تعالى ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3]، ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[4]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ

(١) الداء والدواء/ ٣١٤-٣١٥.
(٢) الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، وهو لما يستقبل، وهو أخص من الخوف.
الخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونه، أو معلومة. - الراغب الأصفهاني/ المفردات/ كتاب الخاء/ ١٤٩، ١٦١-١٦٢.
(٣) سورة آل عمران: آية ١٧٥.
(٤) سورة المائدة: آية ٤٤.

﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1].

والحقيقة: إن مسألة الخوف من غير الله قد استهين بها في زمننا هذا بصورة كبيرة، مما جعل خوف بعض الناس من بعضهم الآخر كأصحاب السلطة والأمر، يفوق خوفهم من الله، فبات الهم هو مراقبة هؤلاء، وتحري رضاهم، وتجنب سخطهم، خوفاً من بطشهم، أو طمعاً في صلتهم، حتى وإن أدى ذلك إلى السكوت عن الحق أو التغاضي عن المنكر؛ بل قد يصل الأمر إلى ماهو أبعد من ذلك بكثير من: تعطيل الحقوق -إما باغتصابها من قبل جهة ما، وإما بتفريط أصحابها بها نتيجة الخوف-، وتفشي الظلم، وانتشار المفاسد، وشيوع روح الانهزامية، والذل، والضعف، والخور، وما إلى ذلك من أمور خطيرة بتنا نرى آثارها المدمرة واضحة المعالم في مجتمعات البلاد الإسلامية، ناهيك عما في هذا الأمر من صرف أمر اختص به الله -سبحانه وتعالى- إلى غيره، وما يؤدي إليه ذلك من تشبيه المخلوق بالخالق «فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء

(٣) سورة يونس: آية ١٠٧.

والتوكل به وحده، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل مالا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياتاً ولانشوراً- فضلاً عن غيره- شبيهاً لمن له الأمر كله فأزمة الأمور كلها بيديه، ومرجعها إليه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع؛ بل إذا فتح لعبده باب رحمة لم يمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد. فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات»[1].

ويذهب ابن القيم إلى أن الذي يحسم خوف المخلوقين من القلب «هو التسليم لله. فإن من سلم لله واستسلم له، وعلم أن ما أصابه ما كان ليخطئه، وما أخطأه ما كان ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له- لم يبق لخوف المخلوقين في قلبه موضع أيضاً. فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلمها إلى وليها ومولاها. وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كتب لها. وأن ما كتب لها لابد أن يصيبها. فلا معنى للخوف من غير الله بوجه»[2].

(١) ابن قيم الجوزية/ الداء والدواء/ ٢٠٨-٢٠٩.
(٢) مدارج السالكين/ ٢/ ٣١.

وفي مقابل الخوف والخشية يقف الرجاء والرغبة.

٣ - الرجاء والرغبة[١].

لما كان الله وحده المالك لخزائن السموات والأرض، والخير كله بيده لا بيد غيره، يعطي من يشاء، ويهب لمن يشاء ما يشاء، وهو القادر على كل شيء، لزم أن يتوجه رجاء العبد ورغبته لله وحده فيما لا يقدر عليه إلا هو، بل وفي كل شيء ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢]، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٣].

فإن شاب هذا الرجاء والرغبة شائبة تتعلق بمخلوق باعتقاد أنه يملك المطلوب بقدرته الشخصية فقد وقع في الشرك، لأن المالك الحقيقي، والمعطي الذي لا يرد عطاؤه هو الله سبحانه وتعالى، وما المخلوقات إلا أسباب ظاهرية

---

(١) الرجاء: الأمل، وهو توقع الخير ممن يملكه ويقدر على تحقيقه، وهو لايصلح إلا مع العمل.
الرغبة: إرادة الشيء وطلبه مع الحب له، والحرص عليه، والطمع في تحصيله.

(٢) سورة آل عمران: آية ٢٦.

(٣) سورة الكهف: آية ١١٠.

للسبب الحقيقي الذي هو وراء كل سبب ألا هو الله سبحانه وتعالى ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾[1].

ومن فهم هذه القاعدة الربانية، فقد حسم رجاء المخلوقين من قلبه بالرضى بحكم الله عز وجل وقسمه له؛ فمن رضي بحكم الله وقسمه له لم يبق لرجاء الخلق في قلبه موضع[2].

ولما كان الرجاء طمعاً في مغيب عنه مشكوك في حصوله، وإن كان متحققاً في نفسه، فإن الرغبة لا تكون إلا بعد تحقق ما يرغب فيه، فالرجاء طمع، والرغبة طلب؛ فإذا قوي الطمع صار طلباً، فالرغبة إذاً ثمرة الرجاء، فإنه إذا رجا الشيء طلبه[3].

والحقيقة أن الرجاء والرغبة مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بأصل المحبة والخوف والخشية؛ فإن الإنسان إذا تعلق قلبه بشيء ما، أو بشخص ما، وأحبه الحب الذي تجاوز به الصورة المشروعة؛ فإن الحرص عليه، وطلب مرضاته، يشعل في القلب نار الخوف من فواته، وخشية فقده، أو تحوله عنه،

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٩٧.
(٢) ابن قيم الجوزيه/ مدارج السالكين/ ٢/ ٣٠-٣١.
(٣) المرجع نفسه/ ٢/ ٥٥-٥٦.

ويصبح هذا شغله الشاغل، وهمه الذي لا يفارقه، وفكره الذي لا يغيب عن خاطره وذهنه، فيتعلق رجاؤه ورغبته به دون غيره، مظنة أن سعادته، وراحته لا يملكها سواه؛ وهنا يقع في مهاوي الشرك باتخاذ الندية لله في الحب والخوف والرجاء.

وفي مقابل هذه الصورة المفرطة في حب الغير، نجد صورة أخرى -أكثر شيوعاً-، وهي الإفراط في حب الذات، والتي تظهر من خلال الحرص على الدنيا، والتكالب عليها، والخوف من فوات بعض حظوظها؛ فيتعلق خوف القلب وخشيته، ورجاؤه ورغبته في بعض من يعتقد الإنسان أنهم يملكون نفعه وضره، وأن بيدهم رزقه عطاءً ومنعاً؛ فإن عمل فهو يعمل لأجلهم، وإن امتنع فامتناعه مراقبة لهم، وحرصاً على تحقيق رضاهم- وأمثلة ذلك كثيرة في: العمل، والتعامل- لا قياماً بالمسؤولية، أو أداءً للأمانة، أو طاعة لله، لأن طاعة المخلوق هنا صارت أولى من طاعة الخالق، ورضاه أحق من رضى الرب؛ أليس في يده العطاء والمنع، وفي قدرته النفع والضر. ؟!!.

إنه الانحراف العقدي الذي صرف ما للخالق للمخلوق، وجعل ما للرب للمربوب؛ فكيف يستقيم هذا

الشرك بل الظلم الكبير للنفس مع قوله تعالى ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

ومادامت قدرة الله وقهره تحيط بكل شيء، فكيف يصرف الإنسان الخوف إلى من ناصيته بيد غيره، وهو في قبضته وتحت قهره وسلطانه، ويعلق الرجاء فيمن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً؛ إنه الجهل بحقيقة الإيمان الصادق بالله تعالى، وبحقيقة الإخلاص له، والتهاون بحقيقة النية التي توجه بها أعمال الإنسان القلبية والبدنية، وما يجره ذلك على صاحبه من نكد العيش، وفقدان الأمن، وخسران الدنيا -وإن ملكها- والآخرة. وكما قال الإمام ابن الجوزي: «فأما من يقصد رؤية الخلق بعمله فقد مضى العمل ضائعاً، لأنه غير مقبول عند الخالق، ولا عند الخلق، لأن قلوبهم قد التفتت عنه، فقد ضاع العمل، وذهب العمر»[2].

وهذا هو معنى قوله ﷺ: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط

(١) سورة هود: آية ٥٦.
(٢) صيد الخاطر/ ٣٦٣.

الله وكله الله إلى الناس» -روته عائشه أم المؤمنين-[1] .

إذاً، فمسؤولية الإنسان عن أعمال قلبه- عقيدته، إراداته، ونيته- هي الأصل في الحساب، ذلك أن القلب هو الأساس الذي يبنى عليه كل شيء؛ فإن صلح وكان قوياً، جاء البنيان قوياً، وإن ضعف تهاوى بنيانه. فصلاح القلب أساس صلاح الإنسان بما فيه كله، وهذه حقيقة ما أشار إليه المصطفى ﷺ في قوله: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» -رواه النعمان بن بشير-[2] .

فأعمال الجوارح ترجمة عملية لما في القلب، وكما شبه العلماء القلب بالملك والجوارح بالرعية، فصلاح الأول صلاح للبقية.

وخلاصة ذلك، ما ذكره ابن القيم عند حديثه عن

---

(١) الترمذي/ السنن/ الجامع الصحيح/ ج٤/ كتاب الزهد ٣٧/ باب (منه)٦٤/ ٢٤١٤/ ٦١٠.

(٢) - فتح الباري/ م١/ كتاب الإيمان٢/ باب فضل من استبرأ لدينه ٣٩/ ٥٢/ ١٢٦.
- مسلم/ م٦/ ج١١/ كتاب المساقاة/ باب الربا/ ٢٨٢٧.
- ابن ماجة/ السن/ م٢/ كتاب الفتن ٣٦/ باب الوقوف عند الشبهات ١٤/ ٣٩٨٤/ ١٣١٨-١٣١٩.

نواقض (لا إله إلا الله) حيث قال: «ومتى لم يكن الله وحده غاية مراد العبد ونهاية مقصوده، وهو المحبوب المراد له بالذات والقصد الأول، وكل ما سواه فإنما يحبه ويريده ويطلبه تبعاً لأجله، لم يكن قد حقق شهادة أن لا إله إلا الله، وكان فيه من النقص والعيب والشرك بقدره، وله من موجبات ذلك من الألم والحسرة والعذاب بحسب ما فاته»[١]. ويضيف ابن رجب: «فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله: محبة وتعظيماً، وإجلالاً ومهابة، وخشية، وتوكلاً، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها وإن كانت مثل زبد البحر»[٢].

القسم الثاني.. أعمال الجوارح.

تبدأ مسؤولية الإنسان الحقيقية - كما تبين لنا - منذ اللحظة التي ينعقد قلبه فيها على النيات والمقاصد - المقترنة بالهم -، ثم تمتد هذه المسؤولية لتشمل الصور والأشكال التي تترجم بها هذه النيات بأعمال ظاهرة هي عمل الجوارح،

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان/ ٢/ ٢١١.
(٢) الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب النجدي الحنبلي/ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد/ ٦١.

والتي تعبر في الغالب عن حقيقة ما ينطوي عليه القلب، والضمير من نيات ومقاصد.

ولكل جارحة من جوارح الإنسان مسؤوليتها الخاصة بها، وحقيقتها التي ينبغي على المسلم أن يستخدمها فيها، قال تعالى﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾(١).

فما هي طبيعة هذه المسؤولية، وإلى أي مدى تصل؟. وهل الجوارح متساوية بحجم مسؤولياتها، وحدود تبعاتها؟. أو أنها تتفاوت بتفاوت آثار العمل الذي تقوم به؟.

الحقيقة أن مسؤولية الجوارح يتفاوت حجمها بتفاوت طبيعة العمل الذي تقوم به، وما يترتب عليه من آثار، ومدى اتساع دائرتها، أو ضيقها؛ بمعنى هل يقتصر أثرها على صاحبها، أو يمتد إلى غيره؟.

يأتي اللسان في مقدمة الجوارح التي تتحمل مسؤولية كبيرة؛ لأن نفعه، أو ضرره لا يقتصر على الإنسان نفسه، لكنه يتعداه حتى يبلغ الآفاق؛ فالإنسان يقول الكلمة، تكون

(١) سورة الإسراء: آية٣٦.

من رضى الله، أو من سخطه، تنتقل عبر المكان والزمان فتنشر الخير، أو تشيع الشر، قال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه»-رواه بلال بن الحارث المزني-[(١)].

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»[(٢)].

وتعظم تبعة الكلمة التي ينطق بها اللسان حتى تكب صاحبها في النار، كما جاء في حديث معاذ بن جبل رضي

(١) - فتح الباري/ م١١/ كتاب الرقائق ٨١/ باب حفظ اللسان ٢٣/ ٦٤٧٨/ ٣٠٨.
- مالك بن أنس/ الموطأ/ كتاب الجامع/ باب ما يؤمر به من التحفظ في الكلام/ ١٩٠-١٩١/ ٨٣٨-٨٣٩.
- ابن ماجة/ السنن/ م٢/ كتاب الفتن ٣٦/ باب كف اللسان ١٢/ ٣٩٦٩/ ١٣١٢-١٣١٣.
- الترمذي/ الجامع الصحيح، السنن/ ج٤، كتاب الزهد ٣٧/ باب في قلة الكلام ١٢/ ٢٣١٩/ ٥٥٩.
(٢) - فتح الباري/ م١١/ كتاب الرقائق ٨١/ باب حفظ اللسان ٢٣/ ٦٤٧٧-٦٤٧٨/ ٣٠٨ (واللفظ له).
- صحيح مسلم/ م٩/ ج١٨/ كتاب الزهد/ باب حفظ اللسان/ ١١٧.
- أحمد/ المسند/ ٢/ ٢٣٦، ٣٥٥، ٤٠٢، ٥٣٣، ٣/ ٣٨، ٤/ ٦٤.

الله عنه - وهو حديث طويل حول العمل الذي يدخل الجنة- عن النبي ﷺ أنه قال «ألا أخبرك بملاك ذلك كله» قلت: بلى. فأخذ بلسانه فقال: «كف عليك هذا»، قلت: يانبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، هل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم»[(١)].

وقال ﷺ: «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له، ويل له»- رواه بهز بن حكيم عن أبيه عن جده-[(٢)].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً، لكنها تعطينا دلالة واضحة على عظم مسؤولية اللسان، والكلمة، حتى وإن كانت مزحة، أو ضحكة؛ إنها قد تؤدي إلى سخط الله الذي لارضى بعده، ولا نهاية له إلا أن يكب قائلها في النار على وجهه ليهوي بها سبعين خريفاً، أو أكثر؛ فما بالك إذا كانت كلمة مقصودة أضرت بأناس، أو فرقت بين أناس أو أدت إلى ظلم أناس، أو اقتطاع حقوق، أو اتهام بباطل، وغيره

(١) - ابن ماجه/ السنن/ م٢/ كتاب الفتن٣٦/ باب كف اللسان١٢/ ٣٩٧٣/ ١٣١٤-١٣١٥. (واللفظ له).
- أحمد / المسند/ ٥/ ٢٣١، ٢٣٦-٢٣٧. وفيه زيادة (مناخرهم).

(٢) الترمذي/ الجامع الصحيح، السنن/ ج٤/ كتاب الزهد ٣٧/ باب فيمن تكلم بكلمة١٠/ ٢٣١٥/ ٥٥٧.

كثير. بكلمات قالها إنسان لم يع مدى مسؤوليته عنها عند الله، قتل أنفساً -قتلاً مادياً، أو معنوياً- بغير حق ولا إثم مبين؛ لكنه الظلم، أو التهاون الذي أنسى صاحبه مسؤولية كلمته أمام الله﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [1] . .

ومع هذه التحذيرات القرآنية، والنبوية كلها، نجدنا في زمان راجت فيه سلعه الكلام، يلقى فيه الكلام على عواهنه لا يفرق بين: كذبه من صدقه، ولا سقيمه من صحيحه، ولا ضاره من نافعه؛ بل ربما كان التلذذ بالكذب، والبهتان، والزور، وانتهاك الحرمات، واستحلال الحرام: بالسخرية، والاستهزاء، والغيبة والنميمة، هو المتعة التي تقضى بها الأوقات، وتقطع بها الساعات. فكم من كلمة قيلت أشعلت نار فتنة أحرقت الكثيرين بنارها؟! .

دخل عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وهو يجبذ لسانه، فقال له عمر: مه غفر الله لك. فقال أبو بكر: إن هذا أوردني الموارد[2]. وما موقف أبي بكر هذا

---

(١) سورة ق: آية ١٨.

(٢) مالك/ الموطأ/ كتاب الجوامع/ ما جاء فيما يخاف من اللسان/ ١٩٧/ ٨٤٠.

إلا لأنه وعى أبعاد قوله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً ، أو ليصمت »[1] .

فإن كان الصديق رضي الله عنه المبشر بالجنة ، صاحب المناقب العظيمة يرى أن لسانه أورده الموارد؛ فما نقول نحن فيما نعيش ونرى؟!، في زمان بات الكلام فيه أهون ما يكون؟!.

كم يمر علينا قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] ؛ فلا يمنعنا من قول ما لا ينبغي ، ولا يكف أيدينا عن معصية حرف تخطه ، أو بطش تنفذه ، أو حرام تناله ، ولا يقصر أرجلنا عن السعي في طريق نهى الله عنه ، وأمر باجتنابه ، ولا يشعرنا بسمؤوليتنا عن ذلك كله ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3] .

لكنها الدنيا التي أسكرتنا ، والغمرة التي أسهتنا عن إدراك حقيقة مسؤولية جوارحنا ، فنظرنا إلى ما حرم الله ،

(١) فتح الباري/ م١١/ كتاب الرقائق ٨١/ باب حفظ اللسان ٢٣/ ٦٤٧٤/ ٣٠٨.
(٢) سورة النور : آية ٢٤ .
(٣) سورة النحل : آية ٩٣ .

واستمعنا إلى ما نهى الله عنه، واجترأنا على الله باستعمال هذه الجوارح التي أنعم بها علينا في غير ما أمرنا، وكأنه لا بعث، ولا نشور، ولا حساب، أو كأنّا ضمنا الجنة، ونجونا من النار؛ ولن نقدم على يوم يقال فيه: ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[1]، ولكن ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2].

إن المتأمل في أحوالنا، يجد ركضاً لاهثاً خلف دنيا براقة، ومطامع لا تنتهي، وانغماساً في شهوات وقتية، ومتع عابرة، وتفريط في جنب الله - إلا من رحم الله -؛ فلا عمل يؤدى كما ينبغي، ولا أمانة يحرص عليها، ولا مال يتحرى من أين يكتسب، أو فيما ينفق، أمن حلال وفي حلال، أم من حرام وفي حرام.

أين هذا من التصوير القرآني الرائع لطبيعة المسؤولية الفردية في قول الله تبارك وتعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ

(١) سورة المرسلات: آية ٣٥-٣٦.
(٢) سورة يس: آية ٦٥.

لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (١).

تصوير قرآني رائع، بدأ بالقيام بالمسؤولية الدينية بأداء الفرائض في هيئتها الظاهرة، ثم أعقبها بعمل القلب المتمثل في الخشوع المخلص لله، لينتقل بعده إلى مسؤولية الجوارح المتمثلة بحفظ اللسان، ثم مسؤولية الكسب وأداء حق الله في المال، فمسؤولية الأخلاق بالابتعاد عن مقارفة الحرام، وأداء الأمانة بمختلف صورها، ورعاية الحقوق، والعهود، ثم يعود إلى المسؤولية الدينية التي هي مبدأ كل شيء ومنتهاه.

القسم الثالث .. مسؤولية العمر [الوقت]

إذا كانت النية هي أساس المسؤولية، والسلوك الخارجي -أعمال الجوارح- هو الصورة المادية الظاهرة لحقيقة ما في القلب، فإن العمر هو الوعاء، أو الإطار العام الذي يملأ بالخير، أو الشر.

ومن هنا امتدت مسؤولية الإنسان من نيته، إلى عمله،

(١) سورة المؤمنون: آية ١-٩.

إلى عمره؛ فهو مسؤول عن كل لحظة من لحظاته، فضلاً عن ساعاته، وأيامه، وسنينه. وهذا ما نص عليه قول المصطفى ﷺ: «لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن: عمره فيما أفناه...» الحديث[1].

ومن ثم فقد حرص الإسلام على تعويد المسلم على شغل وقته كله فيما يعود بالنفع والفائدة، بحيث لا يضيّع شيئاً من وقته سدى؛ فالزمن والوقت له أهميته القصوى في الإسلام، أليس هو حياة الإنسان التي فيها غراس آخرته، يدل على ذلك عناية القرآن الكريم، والسنة المطهرة بالوقت، وبيان أهميته، وأنه من نعم الله العظمى على العبد، ومن ثم فقد جاءت الفرائض الإسلامية من: عبادات، وآداب لتؤكد هذا المعنى؛ فالصلاة مثلاً مرتبطة بالوقت، شاملة ليوم الإنسان، وليله، فهو يفتتح يومه بها، وينهيه بها؛ الصيام، والحج، وغيرها من العبادات كلها ملازمة لمسيرة الزمن، موافقة لحركته[2].

فالإنسان إن لم يستثمر وقته في الطاعة، ضاع منه في المعصية، أو فيما لا نفع فيه؛ فلا شيء أسرع ضياعاً من الوقت مع أنه أنفس ما يملكه الإنسان، لأنه وعاء عمله.

(١) سبق تخريجه.
(٢) يوسف القرضاوي (د)/ الوقت في حياة المسلم/ ٧-٨.

يقول يحيى بن هبيرة :

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه

وأراه أسهل ما عليك يضيع[(١)]

لأجل هذا فقد بيّن المصطفى ﷺ أن غالبية الناس لا يستثمرون وقتهم فيما ينفعهم فهم أشبه بالمغبون في بيعه. يقول ﷺ : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ»-رواه ابن عباس-[(٢)].

ويتحقق الغبن في أن اليوم الذي يمضي لا يعود، واللحظة التي تنقضي لا تسترد، فضلاً أن يضمن الإنسان أنه سيعيش غيرها، وقوله ﷺ «مغبون فيهما كثير من الناس»، يفيد أن المستفيدين منهما قلة من الناس، هم الذين استثناهم الله تبارك وتعالى من تلك الكثرة بقوله ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

(١) ابن رجب/ الذيل على طبقات الحنابلة/ ٢٨١ (ترجمة ابن هبيرة).

(٢) - فتح الباري/ م١١/ كتاب الرقائق٨١/ باب ما جاء في الرقائق ١/ ٦٤١٢/ ٢٢٩.
- ابن ماجه/ السنن/ م٢/ كتاب الزهد ٣٧/ باب الحكمة ١٥/ ٤١٧٠/ ١٣٩٦.
- الترمذي/ الجامع الصحيح/ م٤/ كتاب الزهد ٣٧/ باب الصحة والفراغ١/ ٢٣٠٤/ ٥٥٠.

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1]. فهؤلاء يقضون وقتهم في طاعة الله، والقيام بأمره.

فالوقت الذي هو عمر الإنسان، هو ثروته الحقيقية، ورأس ماله الذي يتاجر به مع ربه. لذا، فقد كانت عناية السلف بالوقت كبيرة، واهتمام العلماء به وحرصهم عليه يفوق حرص غيرهم على الدرهم والدينار، وهذا ما أشار إليه الحسن البصري رحمه الله في قوله: يا بن آدم إنما أنت أيام، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك. وقوله: أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم.

يقول الشاعر:

وما المرء إلا راكب ظهر عمره
على سفر يفنيه باليوم والشهر
يبيت ويضحي كل يوم وليلة
بعيداً عن الدنيا قريباً إلى القبر[2]

(١) سورة العصر.
(٢) نقلاً عن: القرضاوي (د)/ الوقت في حياة المسلم/ ١٠.

وهذا المعنى قريب من قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله : إن الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما[1].

ولأن العمر مهما طال قصير، والزمن لا يتوقف، فقد نبه القرآن الكريم إلى ضرورة اغتنام الوقت، وعدم تضييعه فيما لا يغني، قال الله تبارك وتعالى ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾[2]. قال ابن الجوزي: أي فادأب في العمل، والنصب، الدؤوب في العمل؛ وقد فسرها مجاهد بقوله: فإذا فرغت من أمر دنياك فانصب في عمل آخرتك[3].

وقال ابن كثير: «أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها، فانصب إلى العبادة وقم إليها فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة»[4].

ويفيد هذا، أن وقت المسلم مستثمر كله، لا فراغ فيه، لأن الفراغ هو حال البطالين- كما يصفهم ابن الجوزي-، والمسلم لم يخلق عبثاً، ومن ثم فهو مطالب بالمحافظة على

---

(١) نقلاً عن: عبد الفتاح أبو غدة/ قيمة الزمن عند العلماء/ ٢٧.
(٢) سورة الشرح: آية ٧-٨.
(٣) ابن الجوزي/ زاد المسير في علم التفسير/ ٩/ ١٦٦-١٦٦٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم/ ٤/ ٤٦٠.

وقته، والحرص على الاستفادة منه فيما ينفع دينه، ودنياه، وهو مسؤوليته التي سيحاسب عليها.

ومع هذا، فإن أوقات المسلمين في هذا الزمن تضيع سدى، والشكوى من الفراغ تتردد أصداؤها في كل مكان وزمان، حتى صارت مشكلة تقلق الباحثين والمربين، وتعقد لها المحاضرات والندوات، لأن خطرها بات يهدد المجتمع، وبخاصة فئة الشباب، والمراهقين - الفتيان، والفتيات على حد سواء- وتعاني منها ربات البيوت كذلك[1].

فالأوقات تُبذّر في محاولة لقتلها، و «قتل الوقت» من العبارات التي شاعت بين الناس، وكثر ترديدها، مع أن قتل الوقت، قتل للحياة، وهذا هو السفه بعينه كما أشار إليه أ.د. يوسف القرضاوي في قوله: «والحق أن السفه في إنفاق الأوقات أشد خطراً من السفه في إنفاق الأموال، وإن هؤلاء المبذرين المبددين لأوقاتهم، لأحق بالحجر عليهم من المبذرين لأموالهم لأن المال إذا ضاع قد يعوض، والوقت إذا

(١) وقد تمثل الخطر بانتشار الكثير من العادات السيئة، بل والمدمرة أحياناً للفرد والأمة، كتعاطي المخدرات، وارتكاب الفواحش، والممارسات الشاذة، وغيرها كثير، ضاع بسببها الكثير الكثير من أبناء وبنات هذه الأمة وثرواتها، وفتحت الأبواب على مصراعيها أمام أعداء هذه الأمة ليمزقوا وحدتها، ويشتتوا شملها، ويوهنوا قوتها.

ضاع لا عوض له»[1].

والحقيقة أنه ما كان يمكن أن توجد مشكلة الفراغ، وتضييع الأوقات لو استشعر الإنسان مسؤوليته عن كل لحظة من لحظات حياته، وأنه محاسب عليها حساباً إما يوبقه، أو ينجيه، ولكن غفلة الناس، أو جهلهم لهذه الحقيقة الشرعية، جعلتهم يضيّعون أعمارهم فيما ضره أكبر من نفعه، لأن النفس إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية، والوقت إن لم تملأه بالخير امتلأ بالشر؛ وعدم إحساس المسلمين بمسؤوليتهم عن أوقاتهم وحياتهم، كان سبباً من أسباب ضياع هذه الأمة وتأخرها، فاستثمار الوقت فيما ينفع من العمل وإن كان مسؤولية فردية في ظاهرها، إلا أن مردودها يعود على المجتمع فالأمة، فكم من الأوقات تهدر وكم من الساعات تضّيع دون أن تستثمر في عمل ينفع الدنيا، أو يدخر للآخرة.

والواقع أن مسألة إهدار الوقت فيما لاينفع ظاهرة تكاد تكون عامة في كل ميدان عمل، أو مجال علم، فلا العامل يعي مسؤولية هذا الوقت الذي يضيعه ساعات عمله، ولا طالب العلم يدرك قيمة هذه الفترة التي يعيشها فيستغلها في

(١) الوقت في حياة المسلم/ ١٤.

التحصيل، والنتيجة بطالة مقنعة في مجال العمل، وتسطيح خطير في ميدان العلم، والخاسر الحقيق في هذا كله هو الإنسان المسلم أولاً، والمجتمع الذي يعيش فيه ثانياً، ثم الأمة الإسلامية بمجموعها، والتي باتت تستورد كل شيء بدءاً بالأيدي العاملة، وإنتهاءً بالفكر والمبادىء، مع أنها من أغنى بقاع الأرض بالثروات البشرية، والمادية، والطبيعية؛ لكنه الكسل، وإهدار الوقت، وعدم الشعور بالمسؤولية تجاه ذلك كله، وكأن الهدف هو الراتب لذلك الموظف وإن لم يعمل، والشهادة لهذا الطالب وإن لم يتعلم[١].

وأختم هذه النقطة بقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في حديثه عن: «الانتفاع بالوقت والاتعاظ بالزمن» حيث يقول: «إن هذا الإحساس – على ما به- يلذع الذين توهموا الخلود في الأرض وربطوا مصيرهم بترابها، وهو إحساس صادق إذا قيست أيام الدنيا بأيام الآخرة، ولكنه إحساس مخدوع مضلل لمن مرت به الأصباح والأمسيات وكرت عليه الشهور والدهور، وغدا وراح، وتعب واستراح. ومع ذلك

(١) بعقد مقارنة يسيرة بين وضع اليابان وحرصهم على استثمار الوقت، والمسلمين، في مختلف بقاع الأرض، ندرك الفارق العظيم، مع أن أولئك يعملون للدنيا فقط، وهؤلاء يعلمون أن عملهم للدنيا هو طريق الآخرة، وأنهم مأجورون على كل لحظة وخطوة إن كانت لله.

فهو في غفلة عن يومه وغده. ظل يعبث ويسترسل في عبثه حتى إذا استرخت أجفانه على عينيه، ودخل ظلام الموت، تيقظ بعنف! وهيهات!! لقد صحا بعد فوات الوقت...

إن شأن الناس في الدنيا غريب: يلهون والقدر معهم جاد، وينسون وكل ذرة من أعمالهم محسوبة ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾سورة المجادلة/ آية ٦-.

إن المسلم الحق يغالي بالوقت مغالاة شديدة. لأن الوقت عمره، فإذا سمح بضياعه، وترك العوادي تنهبه فهو ينتحر بهذا المسلك الطائش.

إن الإنسان ليسير حثيثاً إلى الله، وكل دورة للفلك تتمخض عن صباح جديد ليست إلا مرحلة من مراحل الطريق الذي لا يتوقف فيه أبداً. أفليس من العقل أن يدرك المرء هذه الحقيقة، وأن يجعلها نصب عينيه وهو يستبين ما وراءه وما أمامه؛ من الخداع أن يحسب المرء نفسه واقفاً والزمن يسير! إنه خداع النظر حين يخيل لراكب القطار أن الأشياء تجري وهو جالس. والواقع أن الزمن يسير بالإنسان نفسه إلى مصيره العتيد»[1].

(١) خلق المسلم/ ٢٢٣-٢٢٤. (بتصرف).

القسم الرابع: حدود المسؤولية الشخصية

إذا كان الإنسان مسؤولاً عن أعماله القلبية، وأعمال جوارحه، فهل تقف مسؤوليته عند حدود نيته، وعمله، وعمره، أو أن أثرها يتعدى حدوده الشخصية ليصل إلى غيره؟. بمعنى هل يتحمل الإنسان نتيجة عمل غيره؟!

إن قاعدة العمل الرباني التي أوضحتها المفهومات الشرعية الإسلامية تجعل المسؤولية السلوكية للإنسان ذات طابع شخصي فردي بحت، فلا يتحمل المرء تبعة عمل غيره ولا وزره إن أساء، ولا ينال ثواب عمله إن أحسن. قال تعالى﴿ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾(١).

لكن هل هذه القاعدة الربانية تؤخذ على إطلاقها، أو أنها مشروطة بشرط جازم لابد من تحققه فيها حتى تقف مسؤولية الإنسان عند حد نفسه؟؟.

الحقيقة: إن هذه القاعدة مشروطة بأن لا يكون للإنسان كسب في هذا العمل يمتد إلى غيره بخير أو بشر؛ أما إن كان له كسب ما، فإنه مسؤول مسؤولية تامة عن عمل غيره،

(١) سورة الأنعام: آية ١٦٤.

يتحمل مثل وزره، أو ينال مثل أجره. قال الله تبارك وتعالى﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[1]. وقال ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فُعمل بها بعده كُتب له أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فُعمل بها بعده كُتب عليه مثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء» -رواه جرير بن عبدالله-[2]؛ وفي رواية أخرى قال ﷺ: «من دعا إلى هدي كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً؛ ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» -رواه أبو هريرة-[3].

إذاً، فمن خلال النص القرآني والحديث النبوي يتضح

(١) سورة النحل: آية ٢٥.

(٢, ٣) - مسلم/ م٨/ ج١٦/ كتاب العلم/ باب من سن سنة حسنة/١٤/ ٤٨٣٠-٤٨٣١.

- ابن ماجة/ السنن/ ١/ المقدمة/ باب من سن سنة حسنة/١٤/ ٢٠٣-٢٠٨/ ٧٤-٧٥.

- أحمد/ المسند/ ٢/ ٣٩٧, ٥٠٥.

- الترمذي/ الجامع الصحيح/ ج٥/ كتاب العلم٤٢/ باب ما جاء فيمن /١٥ /٢٦٧٤-٢٦٧٥/ ٤٣، مع اختلاف في الطرق والروايات.

لنا أن مسؤولية الإنسان تبقى كاملة عن عمله، لكنه يتحمل مسؤولية غيره أيضاً كاملة، ويشاركه فيها إذا كان هو سبب فيها، ولذلك صور متعددة منها: النصيحة، والرأي، والإيحاء بالشيء، والأمر بالشيء، أو النهي عنه، والقدوة، وفيها جاء قول الرسول ﷺ: «ليس من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها- وربما قال سفيان: من دمها- لأنه سن القتل أولاً»- رواه مسروق -[1].

بل إن السكوت عن الحق، أو عدم إنكار المنكر، وسلبية الإنسان في التعامل مع المواقف تجعله يتحمل وزر ذلك، إن كان ممن يملك قدرة على الفعل الإيجابي، وإن كان في محيطه القريب. يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في بحثه حول مسؤولية الإنسان عن عمل غيره: «بل إن الأمر ليذهب إلى أبعد من هذا فلن نسأل عما قدمت أيدينا فحسب، بل سوف نسأل أيضاً بصورة ما عن تصرفات الآخرين، فنحن مسؤولون عن انحراف مسلك أقراننا، حين نتركهم يسيئون دون أن نتدخل بجميع الوسائل المشروعة التي نطبقها- لنمنعهم من الإساءة. وشبيه بهذا أن العمل الاجتماعي

(١) فتح الباري/ م٣/ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٩٦/ باب إثم من دعا إلى ضلالة ١٥/ ٧٣٢١/ ٣٠٢.

السلبي، أو عـدم المبـالاة- تُجـرم بنفس درجـة العـمل الإيجابي» فالامتناع هو المشاركة السلبية في الجريمة»[1].

فـالإنسـان إذاً مـسـؤول عن عـمله الإرادي ونتـائج هذا العمل، وآثاره القريبة المباشرة، أو البعيدة المتأخرة، وذلك على امتداد الزمان والمكان؛ فصحيفة أعمال الإنسان تبقى مفتوحة يسجل فيها ما يتجدد من آثار أعماله الدنيوية عندما كان في دور الحياة والمسؤولية والتكليف[2]. - هذا إن كانت هذه الأعمال مما يمتد أثره إلى الغير بخير أو بشر - قال الله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾[3].

وهذه قضية جد خطيرة تحتاج منا إلى وقفة تأملية، تجعل الإنسان ينظر إلى مكانه في المجتمع، ووضعه فيه، وطبيعة العمل الذي يقوم به، وآثاره الناتجة عنه، وإلى أي مدى هي ممتدة، وما عمق تأثيرها على غيره، فإن كان صاحب فكر،

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن/ ١٥٥.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني (د) الأخلاق الإسلامية وأسسها/ ١/ ١٤٢ وما بعدها. العقيدة الإسلامية وأسسها/ ٦١٧ ومابعدها.

- محمد عبد الله دراز (د)/ من خلق القرآن/ ١٧٣ ومابعدها.

(٣) سورة يس: آية ١٢.

فليقف أمام كل فكرة قبل نشرها، ولا يستهين بها، فربما صادفت عقلاً يقبلها، أو نفساً ترضاها ولو بعد سنين؛ وإن كان صاحب قلم فليقف أمام كل كلمة قبل أن يخطها، فقد تكون عليه لا له ولو بعد حين؛ وإن كان صاحب رئاسة أو ولاية فقد جعل نفسه قدوة فلينظر ما هو فاعل؛ وإن كان مربياً، أو والداً، أو معلماً، فهو ممن يتأسى به وتُتبع خطاه ويؤخذ بقوله، هداية كان أو ضلالاً.

أما إن كان شيخاً أو عالماً بالدين فمسؤوليته أعظم، وتبعته أكبر، لأنه يدور في فلك الشرع، والناس تسيِّر أمور دينها، ومعاشها وفق ما يرونه منه، أو يرشدهم إليه؛ فهو قد حمل ميراث النبوة، والعامة تنهل من معينه؛ فإن زلته يهلك بها خلق كثير، ورشده يرشد به خلق كثير.

ومع هذا، فإن من العلماء- مع علمهم بهذا الأمر- يبيعون دينهم بعرض من الدنيا زائل، إما اتباعاً لهوى، أو إرضاءً لسلطان، أو انهزاماً أمام شهوة مال، أو وهج سلطان، أو حطام دنيا.

والخلاصة..

إن الإنسان مسؤول مسؤولية كاملة عن كسبه الإرادي في حياته، وآثار هذا الكسب بعد أن تطوى صحيفة حياته، وتبقى صحيفة عمله مفتوحة إلى ما شاء الله، سواء أكان ذلك عن:

أ- كسبه الإيجابي المتمثل بما قام به من عمل إيجابي بإرادته واختياره، فكرياً كان، أو نفسياً، أو بدنياً، طاعةً، أو معصيةً.

ب- كسبه السلبي.. بترك ما كلف به من عمل بإرادته، فكرياً كان، أو نفسياً، أو بدنياً، طاعةً، أو معصيةً.

وكذلك هو مسؤول عن عمل غيره في الحالات التالية:

* إذا فعل غيره الفعل امتثالاً لأمره، وخضوعاً لسلطانه.

* إذا زين لغيره الفعل، أو نصح له.

* إذا اقتدى به هذا الغير، وسار على نهجه، ولو دون علمه.

الإقرار الصامت عن فعل الغير، والإغضاء عنه بالسكوت عليه[1].

وهذا، يفيد بأن المسؤولية الفردية مرتبطة بالمسؤولية الجماعية، وإن لم تكن هي ذاتها، ولكن المسؤولية الجماعية

(١) محمد عبد الله دراز (د)/ من خلق القرآن/ ١٧٣-٢٤٣.

ما هي إلا جماع المسؤوليات الفردية. فالفرد مسؤول بوصفه عضو في الجماعة، عليه أن يعمل على خيرها، وصلاحها، وحفظها؛ فكثرة الأفراد الصالحين في الأمة يؤدي إلى هداها، وقوتها، ومنعتها، واستقامتها.

وكلما كثر في الأمة الأفراد الضالون الطالحون المتهربون من المسؤولية، ضلت الأمة، وتقطعت بها الأسباب، وتعرضت لعوامل الخراب.

ومن ثم فقد ربط الإسلام بين المسؤولية الفردية، والمسؤولية الجماعية، بحيث تؤدي هذه إلى تلك؛ وفي المقابل فإن على الجماعة تربية أفرادها على تحمل المسؤولية، والقيام بمتطلباتها.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

وكما أن الإنسان مسؤول كفرد شرعاً، فهو مسؤول شرعاً بصفته عضو في جماعة أيضاً. وهذا ما سنعالجه بإذن الله في المبحث التالي.

(١) سورة التوبة: آية ٧١.

المبحث الثالث

المسؤولية الاجتماعية العامة

تنبني قاعدة المسؤولية الاجتماعية في الإسلام على أساس المسؤولية الفردية الشخصية؛ فما المجتمع إلا مجموعة من الأفراد تجمعهم روابط مختلفة، ويوحد بينهم نظام معين، يجعل كل واحد منهم يشكل جزءاً من هذا الكل.

وبذا، فإن مسؤولية الفرد تنتهي في اللحظة التي تبدأ فيها مسؤولية الجماعة؛ والحقيقة أن كلمة [تنتهي] قد لا تكون بالدقة المطلوبة، لأن مسؤولية الفرد الشخصية مستمرة بالنسبة له شخصياً، لكنها تندمج في إطار المسؤولية الجماعية بصورة لا تذيبها نهائياً، وإنما تبقي لها خصائصها الذاتية مع إضافة بعد جديد هو التحامها بمسؤولية الجماعة العامة، التي تقوم بحفظ كيان هذا المجتمع واستمراره؛ ومن هنا فلا تضاد، ولا تصادم، ولا انفصال بين مسؤولية الفرد، ومسؤولية الجماعة، لكنه التكامل الذي حرص الإسلام عليه لتحقيق وحدة هذه الأمة ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[1]،

(١) سورة الأنبياء: آية٩٢.

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (١) .

والوحدة المقصودة هنا ليست الوحدة الظاهرية الشكلية، لكنها الوحدة الفعلية بصورها المادية، والمعنوية كلها، والتي تجعل أفراد هذه الأمة كالجسد الواحد، الذي يتفاعل كل عضو فيه مع ما يلم بالأعضاء الأخرى فيتألم لها، ويقلق معها، قال ﷺ واصفاً حقيقة هذه الوحدة: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى» -رواه النعمان بن بشير- (٢) .

وهذا التصوير النبوي الرائع لوحدة الجماعة المسلمه، لا يتم إلا إذا قام كل فرد من أفرادها بمسؤوليته الشخصية المناطة به، ثم التقت هذه المسؤوليات والتحمت لتشكل الإطار الحقيقي لمسؤولية الجماعة (المسؤولية العامة) بدرجاتها المختلفة التي تتسع دوائرها شيئاً فشيئاً من المسؤولية الأسرية،

(١) سورة المؤمنون: آية ٥٢ .

(٢) - فتح الباري/ م١٠/ كتاب الأدب٧٨/ باب رحمة الناس والبهائم ٢٧/ ٦٠١١/ ٤٣٨ .

- مسلم/ م٨/ ج١٦/ كتاب البر/ باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم/ ١٣٩-١٤٠ . وله رواية أخرى «المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله» .

إلى مسؤولية الجماعة، فمسؤولية السلطة -القيادة-، ثم مسؤولية الحكام وولاة الأمر. وهذه المسؤوليات جميعاً لها وجهان متكاملان، يصلح كل منهما بصلاح الآخر، ويفسد بفساده: المسؤولية الفردية، والمسؤولية الجماعية. فأي تقصير، أو تهاون في إحداهما ينعكس على الأخرى سلباً وبشكل تلقائي، وفي المقابل فإن الالتزام والقيام بها على الوجه الكامل يؤثر على الأخرى إيجاباً. وهكذا تدور مسؤولية الجماعة في هذا الفلك بين السلب والإيجاب؛ فالفرد مرتبط بالجماعة، والاحتكاك بينهما مستمر ودائم.

إن البحث في موضوع المسؤولية الجماعية طويل ومتشعب، يصعب حصر أبعاده المتعددة في صحائف قليلة، ولكنّا سنكتفي بعرض موجز لصور مختلفة من درجات المسؤولية الاجتماعية. نبدؤها بالنواة الأولى للجماعة وهي:

١ - المسؤولية الأسرية:

تبدأ المسؤولية الأسرية منذ اللحظة التي يتم الإقدام فيها على الزواج، وذلك بالتدقيق، وحسن الاختيار للزوجين، بحيث تكون قاعدة الاختيار الأولى هي: الدين، وحسن الخلق؛ لأن الهدف الأصلي هو إيجاد البيئة الصالحة لتنشئة

أفراد صالحين، يحققون الغرض من خلق الإنسان، بتحقيق العبودية الخالصة لله، وتكوين الأمة الخيرة التي تقوم بمسؤولية خلافة الأرض؛ لا لغرض مادي بحت، أو إشباع دافع فطري فحسب. قال الله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١). وقال ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك» -رواه أبو هريرة-(٢).

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٢١.

(٢) - فتح الباري/ م٩/ كتاب النكاح ٦٧/ باب الأكفاء في الدين ٢٠/ ٥٠٩٠/ ١٢٣/ واللفظ له.

- مسلم/ م٥/ ج١٠/ كتاب الرضاع/ باب استحباب نكاح ذات الدين/ ٥١-٥١.

- الدارمي/ السنن/ م٢/ كتاب النكاح ١١/ باب تنكح المرأة لأربع: ٤/ ٢٠٩٣/ ٥٧١.

- ابن ماجة/ السنن/ م١/ كتاب النكاح ٩/ باب تزويج ذات الدين ٦/ ١٨٥٨/ ٥٩٧.

- أحمد/ المسند/ ٢/ ٤٢٨.

- أبو داود/ السنن/ م١/ كتاب النكاح ٦/ باب ما يؤمر به من تزوج ذات الدين ٢/ ٢٠٤٧/ ٦٢٤.

- النسائي/ صحيح السنن/ م٢/ كتاب النكاح ٢٦/ باب كراهية تزوج الزناة ١٣/ ٣٠٢٩/ ٦٨١.

وقال ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» -رواه أبو هريرة-[1].

ثم تتوالى المسؤوليات بحسن العشرة، والقيام بالواجبات، وأداء الحقوق، والحفظ، والتعاهد بالخير. قال الله تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[2] - وتعاليم الإسلام في هذا الباب كثيرة لم تدع صغيرة ولا كبيرة إلا تناولتها-.

وبعد تهيئة البيئة الأسرية الطيبة القائمة على أمر الله، تبدأ مسؤولية الأبوين تجاه أبنائهم منذ اللحظة التي يطل فيها المولود على هذه الدنيا، فيكون أول ما يصافح سمعه دعوة الحق، ثم حسن التسمية، والاهتمام بالتربية: البدنية، والنفسية، والعقلية، والدينية، والروحية؛ ملاعبة، ثم تربية وتأديباً، ثم مصاحبة وتوجيهاً، بلا إفراط ولا تفريط، بعيداً عن القسوة أو التدليل، أو الإساءة، أو التهاون، أو الإهانة،

(١) - ابن ماجة/ السنن/ م٢/ كتاب النكاح ٩/ باب الأكفاء٤٦/ ١٩٦٧/ ٦٣٢-٦٣٣.
- الترمذي/ السنن/ م٣/ كتاب النكاح٩/ باب ما إذا جاءكم من ترضون٣/ ١٠٨٤-١٠٨٥-٣٨٥-٣٨٦.

(٢) سورة التحريم: آية٦.

أو التعظيم، أو التسيب أو التعقيد، بأسلوب يكفل الاستقرار النفسي» والإشباع العاطفي، ويعمل على بناء الشخصية السوية المعتدلة، المستقيمة سلوكاً، المعتزة بدينها، و بمنهاج ربها، وتراث أمتها؛ محاطةً بالإيمان والهدى، والخير والفضيلة، والعفة، والبر والمعروف، قوية في وجه المؤثرات المحيطة بها، لا تنهزم أمام باطل، ولا تضعف أمام وهج بريق كاذب، ولا تساق كالشاة في القطيع.

وهذه، مسؤولية عظيمة فرط فيها كثير من الآباء والأمهات، يوم شغلتهم الدنيا عن تربية أبنائهم، وتخلوا عن أخطر مهمة ليتولاها: إعلام مغرض، أو مربية مربية مسيئة، أو صحبة سيئة، وربما تركوهم ليتولى الشارع تربيتهم، فضيعوا أجيالاً ضاع بضياعهم المجتمع فالأمة، أجيالاً لا هم لها، ولا هدف عندها، توجهها روح انهزامية، وتقودها عقلية تبعية، وتمثلها شخصية ازدواجية مشوشة.

إن تفريط الأسرة في مسؤولياتها الخاصة يمتد أثره إلى المجتمع، الذي تمثل هذه الأسر جزءاً من كيانه، أليس المجتمع هو: عبارة عن مجموعة من الأفراد والأسر، فكل فرد من أي أسرة يشكل نواة جديدة لأسرة جديدة ينقل إليها

بذور الخير والصلاح التي تربى عليها، أو الشر والفساد التي استقاها من منابع أصوله.

٢ - مسؤولية الجماعة (المجتمع)..

إذا قام كل فرد من أفراد المجتمع بمسؤوليته الشخصية المناطة به، وفق وضعه في المجتمع، ودوره فيه، فقد تحققت مسؤولية الجماعة بصورتها المثلى. وتتولى الجماعة بدورها تربية أفرادها على تحمل مسؤولياتهم الشخصية، والقيام بمتطلباتها، وصيانة عقائدهم من شوائب الشرك، والضلال، والحرص على مصالحهم، وحماية أخلاقهم من: أسباب التحلل والفجور والفساد والفوضى، والأخذ على أيدي العابثين، والإنكار على مرتكبي المنكرات.

ويقدم لنا المصطفى ﷺ تصويراً دقيقاً رائعاً لمدى مسؤولية الجماعة عن حفظ أفراد مجتمعهم فيقول ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينه فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن يأخذوا

على أيديهم نَجَوا ونَجوا جميعاً»-رواه النعمان بن بشير-[1]. وهذا تحقيق لأمره تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[2].

وهي مسؤولية تُعنى بحفظ الحقوق، وحماية الحريات، لا التعدي عليها، وإقامة شرع الله في شؤون حياتهم الخاصة والعامة؛ وفي الوقت ذاته، الوقوف في وجه أصحاب الهوى، المروجين للشكوك، والشبهات المثيرين للغرائز والشهوات؛ بالدفاع عن الجماعة، ودين الجماعة، وأخلاق الجماعة، وبنية المجتمع.

هذا هو الأصل في حماية المجتمع، لا بإقامة الجيوش لحماية الأرض، فما قيمة الأرض إذا ضاع الإنسان على الأرض؟؟!.

كما أن لهذه المسؤولية الجماعية بعداً آخر يتمثل في

(١) فتح الباري/ م٥/ كتاب الشركة ٤٧/ باب هل يقرع في القسم ٦/ ٢٤٩٣/ ١٣٢، كتاب الشهادات ٥٢/ باب القرعة في المشكلات ٣٠/ ٢٦٨٦/ ٢٩٢-٢٩٣.
- أحمد/ المسند/ ٤/ ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٣.
- الترمذي/ الجامع الصحيح/ ج٤/ كتاب الفتن ٣٤/ باب منه ١٢/ ٢١٧٣/ ٤٧٠.

(٢) سورة المائدة: آية ٢.

النصح للحكام وولاة الأمر، والتعاون معهم على الخير، والأخذ بيدهم إلى طريق الحق، ومعاونتهم عليه، وطاعتهم في المعروف، وتذكيرهم بحقوق الله عليهم، ثم حقوق رعيتهم إذا نسوا، وتنبيههم إذا غفلوا، وتقويمهم إذا أخطؤوا برفق ولين ولطف، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر بالتي هي أحسن وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [1]. وقال ﷺ: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» -رواه تميم الداري- [2].

(١) سورة النساء: آية٥٩.

(٢) - مسلم/ م١/ ج٢/ كتاب الإيمان/ باب الدين النصيحة/ ٣٦-٣٧. واللفظ له.

- فتح الباري/ م١/ كتاب الإيمان٢/ باب قول النبي ﷺ «الدين النصيحة» ٤٢/ ١٣٧. ولم يخرجه.
- أحمد/ المسند/ ٤/ ١٠٢.
- الترمذي/ الجامع الصحيح/ ج٤/ كتاب البر والصلة ٢٨/ باب ما جاء في النصيحة ١٧/ ١٩٢٦/ ٣٢٤.
- النسائي/ السنن/ ج٣/ كتاب البيعة ٣٩/ باب النصيحة للإمام ٣١/ ٣٩١٣-٣٩١٦/ ٨٨٠.

إنها مسؤولية الجماعة في التعاون الحقيقي، والتلاحم الصادق لفئات المجتمع أفراداً وجماعات، حكاماً ومحكومين.

هذا المفهوم الإسلامي بصورته الرائعة لمعنى مسؤولية الجماعة. ترى إلى أي مدى يمكن أن نرى تحققه في مجتمعات اليوم المسلمة..؟؟

إن المتأمل في أحوال المجتمعات الإسلامية يرى اختلافاً كبيراً، بين الصورة التي رسمها الإسلام، والواقع الذي يعيشه المسلمون في مجتمع ذابت فيه ملامح المسؤولية الحقيقية في خضم تضخم الأنا، والاهتمام بالفردية والذات، والسعي للحصول على أكبر قدر من المصالح، وإن كان ذلك على حساب مصلحة الجماعة والأمة(١).

ويعظم مجال المسؤولية كلما اتسع نطاقها، وارتفع المكان الذي يشرف منه الإنسان؛ فهي كالدوائر بعضها فوق بعض، تتدرج في الاتساع والارتفاع، كالهرم المقلوب، قمته المدببة في أسفله، وقاعدته العظمى في أعلاه، تتصاعد من

(١) مع وجود استثناءات رائعة- لهذه القاعدة الشاذة عن منهاج الإسلام- ولكنها مغيبة في خضم الكثرة الغالبة، التي لم يعد لها هم سوى تحقيق مصالحها الشخصية.

الفرد، إلى رب الأسرة، وتستمر في تصاعدها، واتساع قاعدتها حتى تصل إلى ولي الأمر (الحاكم)[1]، الذي يمثل المسؤولية الكبرى.

٣- مسؤولية ولاة الأمر (الحكام):

إن مسؤولية الحكام وولاة الأمر في الإسلام مسؤولية جسيمة، لها شأن خطير، لأنها تحوي بداخلها المسؤوليات المتعددة باختلاف أنواعها، وتعدد درجاتها، وتباين صورها؛ ذلك أن دورهم في قيادة الأمة، وتوجيهها، وتغير صفحات التاريخ، دور عظيم. لذا، كانت مسؤوليتهم مسؤولية كبيرة أمام الله عز وجل عن أمانة المسؤولية، وعن كل صغيرة وكبيرة في نطاق ولايتهم وحكمهم؛ فالحاكم مسؤول عن: أحوال رعيته، وعن شؤون دولته، وعن وزرائه، وعماله، ومدى قيامهم بالأمانة- دقت، أو جلت- أقاموها، أو ضيعوها؛ فإن أحسن الاختيار كان له ثوابها، وإن أساء الاختيار فهو يحمل معهم أوزارها، ونصوص الشرع تقرر عظم مسؤولية من ولي من أمر المسلمين شيئاً.

(١) محمد عبد الله دراز (د)/ من خلق القرآن/ ٢٤٠-٢٤١.

قال ﷺ : «مامن عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة» –رواه معقل بن يسار–[1] . وقال ﷺ : «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة» –رواه معقل بن يسار–[2] . وقال ﷺ «ما من إمام أو وال يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسكنة، إلا أغلق الله عز وجل أبواب السماء دون حاجته وخلته ومسكنته» –رواه عمرو بن مرة–[3] . وقال ﷺ : «ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة» –رواه معقل بن يسار–[4] .

قال ابن بطال في شرحه لهذا الحديث: هذا وعيد شديد لأئمة الجور ممن ضيع من استرعاه الله أوخانهم أو ظلمهم فقد

(١) فتح الباري/ م١٣/ كتاب الأحكام ٩٣/ باب من استرعى رعية ٨/ ٧١٥٠/ ١٢٦-١٢٧ .

(٢) مسلم/ م٦/ ج١٢/ كتاب الإمارة/ باب فضيلة الأمير العادل/ ٢١٥ .

(٣) - أحمد/ المسند/ ٤/ ٢٣١ .

- أبو داوود/ السنن/ ٢/ كتاب الخراج والفيء والإمارة ١٤/ باب فيما يلزم الإمام ١٢، ١٣/ ٢٩٤٨٨/ ١٥٠ . وفيه «من ولاه الله عز وجل شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجاتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله عنه دون حاجته وخلته وفقره» – رواه أبو مريم الأزدي– .

(٤) - فتح الباري/ م١٣/ كتاب الأحكام ٩٣/ باب من استرعى رعية٨/ ذ٢٧ .

- مسلم/ م٦/ ج١٢/ كتاب الإمارة/ باب فضيلة الأمير العادل/ ٢١٥ .

- أحمد المسند/ ٥/ ٢٥ .

توجه إليه الطلب بمظالم العباد (يوم القيامة) فكيف يقدر التحلل من ظلم أمة عظيمة، ومعنى «حرم الله عليه الجنة» أي أنفذ الله عليه الوعيد ولم يرض عنه المظلومين[1].

ولم يكتف النبي ﷺ ببيان عظمة مسؤولية من ولي من أمر المسلمين شيئاً، وتغليظ التبعة، لكنه دعى على من يشق على أمته، ودعى لمن يرفق بهم، فقال ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن وليّ من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»-روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها-[2].

قال الإمام النووي في شرحه على مسلم: «الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه وهو تحت نظره ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته»[3].

ولن يعي حقيقة هذه المسؤولية العظيمة إلا من علم أن الحكم في الإسلام لله وحده، ومقيد بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ وأنها أمانة عظيمة، سائله الله عن كلّ

(١) فتح الباري/ المجلد، والكتاب، والباب نفسه/ ١٢٨.
(٢) مسلم/ م٦/ ج١٢/ كتاب الإمارة/ باب فضيلة الأمير العادل/ ٢١٢-٢١٣.
(٣) المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.

صغيرة وكبيرة فيها[1] ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[2].

وتتجلى مسؤولية الوالي في حفظ البلاد، والعباد، بما لكلمة الحفظ من أبعاد، ودلائل مادية كانت، أم معنوية؛ فهو مسؤول عن تأمين:

أ- الحكم بشرع الله: قال الله تعالى ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾[3]. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[4]. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[5]. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[6].

---

(١) ولأن مسألة الولاية والحكم من أخطر القضايا شأناً، فقد ألف فيها كثير، وتكلم العلماء حول الحقوق، والواجبات المتبادلة بين الراعي والرعية، والشروط التي ينبغي توفرها فيمن يلي أمر المسلمين منها: ابن تيمية/ السياسة الشرعية، الحسبة... ابن قيم الجوزية/ الطرق الحكمية... الماوردي/ الأحكام السلطانية... الشيرزي/ المنهج المسلوك في سياسة الملوك... وغيرها.

(٢) سورة الصافات: آية ٢٤.

(٣) سورة المائدة: آية ٤٩.

(٤) سورة المائدة: آية ٤٤.

(٥) سورة المائدة: آية ٤٥.

(٦) سورة المائدة: آية ٤٧.

ب- العدل بين الناس: قال الله تعالى﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾[1]. والمساواة بينهم في الحقوق، والواجبات، وبخاصة عند تطبيق القانون. قال الله جلّ وعلا﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

قال الحسن البصري: إن الله جمع الخير كله، والشر كله في الآية؛ وقال: إن استقامة الملك بالثلاثة المأمور بها في الآية، واضطرابه بالثلاثة المنهي عنها فيها[3].

ج- تأمين الحرية الإنسانية للرعية: وتأمين احترام كيانهم الإنساني من التعرض له بالمصادرة، أو الظلم، أو القهر، أو الإكراه، من قبل بعضهم لبعض، أو من قبل الحكام أنفسهم، أو منعهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

د- المحافظة على المصالح(الأصول، الضروريات) الخمس وهي: الدين، المال، النفس، العقل، النسل، والتي هي قوام حياة الإنسان في هذه الدنيا. وهذه الأصول الخمسة

(١) سورة النساء: آية ٥٨.
(٢) سورة النحل: آية ٩٠.
(٣) الشيرازي/ عبد الرحمن بن عبدالله بن نصر/ المنهج المسلوك في سياسة الملوك/ ٢٤٣.

مدار الأحكام الشرعية كلها. وذلك بمنع الاعتداء عليها بأي نوع من العدوان المادي، أو المعنوي، يستوي في وذلك المواطن المقيم، وعابر السبيل الطارىء، المسلم، وغير المسلم.

هـ- التيسير ورفع الحرج: بعدم تكليفهم بما لايطيقون، أو مطالبتهم بما لا يملكون. ويتحقق ذلك من خلال اتباعه الآتي:

١- أن يختار للقيام بمسؤولية وظائف الدولة أهل الصلاح، والتقوى، والأمانة، ولا يولي أحداً محاباة له، أو لصلة قربى، وذلك من أكبر مسؤول إلى أصغر موظف في الدولة[١].

قال ﷺ: «من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمَّر عليهم أحداً محاباة، فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، حتى يدخله جهنم، ومن أعطى أحداً حمى الله فقد انتهك في حمى الله شيئاً بغير حقه فعليه لعنة الله، أو قال: تبرأت منه ذمة الله عز وجل» رواه أبو بكر رضي الله عنه[٢].

(١) انظر: عبد الله أحمد قادري الأهدل(د)/ المسؤولية في الإسلام/ ٢٧.
(٢) أحمد/ المسند/ ١/ ٦.

٢- أن يختار البطانة الصالحة من أهل التقوى، والصلاح، والخشية، والعلم، والنصح، ليكونوا له عوناً على القيام بالمسؤولية. قال ﷺ: «مامن وال إلا له بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، فمن وقي شرها فقد وقي وهو من التي تغلب عليه منهما» -رواه أبو هريرة[(١)].

ويجمل الشيرزي الخصال التي يتحقق بها قيام الحاكم بمسؤولياته فيقول: «واعلم أن العدل لا يتحقق من الملك إلا بلزوم عشر خصال:

الأول: إقامة منار الدين، وحفظ شعائره، والحث على العمل به، من غير إهمال له، ولا تفريط بحقوقه.

الثاني: حراسة البيضة-البيعة- والذب عن الرعية من عدو في الدين، أو باغ في النفس والمال.

الثالث: عمارة البلدان، باعتماد المصالح، وتهذيب السبل، والمسالك.

(١) - النسائي / السنن/ ج٣/ كتاب البيعة ٣٩/ باب بطانة الإمام ٣٢/ ٣٩١٧-٣١٩١٩/ ٨٨٠-٨٨١. واللفظ له.
- أحمد/ المسند/ ٣/ ٣٩، ٨٨. والحديث من رواية أبي سعيد الخدري، مع اختلاف في اللفظ؛ ٦/ ٧٠.

الرابع : النظر في تعدي الولاة، وأهل العز من الأعوان على الرعية، لأن تعديهم منسوب إليه. قال الشاعر :

ومن يربط الكلب العقور ببابه

فعقر جميع الناس من رابط الكلب

كذلك من ولّى ابنه وهو ظالم

فظلم جميع الناس من قبل الأب

الخامس : النظر في أحوال الجند، وغيرهم من أهل الرزق لئلا تبخسهم العمال أرزاقهم، أو يؤخرون العطاء فيجحف الانتظار.

السادس : الجلوس لكشف المظالم بين المتشاجرين من الرعية، والفصل بينهم بالنصفة على وجه الشرع.

السابع : تقدير ما يخرج من بيت المال على طبقات أربابه من غير إسراف ولا إقتار.

الثامن : إقامة الحدود على أهل الجرائم بالشرع المطهر على قدر الجريمة.

التاسع : اختيار خلفائه في الأمور، وولاته، وقضاته، وعماله بأن يكونوا من أهل الكفاية والأمانة

والحذق، والدراية فيما هم بصدده.

العاشر: تنفيذ ما وقف من أحكام القضاة وأهل الحسبة، وما عجزوا عن تنفيذه لقوة يد المحكوم عليه، وتعززه، فينفذ الملك ما حكموه بالشرع»[1].

وبعد هذا التحديد الشرعي لمسؤولية الحكام والولاة، والتي تشمل مناحي سلطانهم المادية والمعنوية، والتي جعلت السلف رحمهم الله ورضي عنهم يرهبونها، ويتهربون منها، مخافة ألا يؤدوا حقها، وأن يقصروا بمسؤولياتها؛ وإذا ابتلوا بها بالغوا في تحري مواقع خطاهم قبل أن يخطوها، وآثار عباراتهم قبل أن ينطقوها، حتى حرّم عليهم خوفهم منها نوم الليل، أو راحة النهار[2].

وبعد هذا كله نقول: هل وعى حكام المسلمين اليوم حقيقة مسؤولياتهم عن ولايتهم أمام الله..؟؟

نترك للواقع فصل الخطاب في إجابة هذا السؤال، وللقارىء الحكم.

---

(١) - المنهج المسلوك في سياسة الملوك/ ٢٤٩-٢٥٣. انظر: الماوردي/ الأحكام السلطانية/ ١٥-١٧.

(٢) - يراجع في هذا الشأن سير الخلفاء الراشدين، والخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز رحمهم الله ورضي عنهم. ففيها من العبرة الشيء الكثير.

المبحث الرابع

المسؤولية بين الإفراط والتفريط

رأينا من خلال المباحث السابقة كيف أن المسؤولية في الإسلام تمتد من الفرد إلى الجماعة فالأمة، فالناس كافة في نظام متناسق مترابط متدرج، تتسع دوائره بحسب موضع الإنسان ومكانته، وكيف كان التوافق والتبادل بين الفرد والمجتمع والأمة في القيام بحقيقة المسؤولية وأبعادها وآثارها؛ ذلك كله في حدود منهاج الله الذي رسم المسؤوليات، وحدد أبعادها، بحيث لا تخل إحداها بالأخرى ، أو تطغى مسؤولية على أخرى؛ فلا مسؤولية الفرد تلغي مسؤولية الجماعة والأمة، ولا مسؤولية الجماعة والأمة تطغى على مسؤولية الفرد وتسلبه إياها، لكنه الارتباط الوثيق بين مسؤولية الفرد، ومسؤولية الأمة. قال الله جلّ وعلا ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

(١) سورة الجاثية: آية ٢٧-٢٩.

تصوير إلهي واضح لمدى ترابط مسؤولية الفرد بمسؤولية الأمة، فالأمة هنا جاثية مدعوة إلى كتابها، وفي كتاب الأمة استنساخ لأعمال كل فرد على حدة؛ فما الأمة إلا مجموعة أفرادها.

لكن الجهل بالمسؤولية، وعدم قيام التوازن بين المسؤولية الفردية، ومسؤولية الجماعة والأمة، ومسؤولية القيادة والسلطان، واختلاط حدودها، يفتح باب الهوى، والاتباع عن جهل، أو عن هوى، فيدخل الشيطان من مدخل الهوى، ومدخل الجهل، فيزين الفتنة، ويجمل الضلالة، فيقع الاضطراب في المسؤوليات، وفي العلاقات الفردية الجماعية، وينتهي إلى خلل في مسؤولية الأمة، ويبدأ الخلل من نقطة الارتكاز في المسؤولية، وهي مسؤولية الفرد «فمن الناس من يستكين ويغيب في استرخاء وكسل، يحسب أن غيره سيقوم بالأمانة، فلا عليه إذا هو استراح، وينسى أنه يحمل مسؤولية، هو نفسه سيحاسب عليها يوم القيامة، ومن الناس من يتجاوز مسؤولياته إلى مسؤوليات الأمة، ويقع الناس بعد ذلك بين رجل غافٍ في أمانيه، ورجل تحرقه الفتنة»[1].

(١) عدنان علي رضا النحوي (د)/ منهج المؤمنين بين العلم والتطبيق/ ١٧٣.

إذاً، فالناس في معظمهم أمام المسؤولية أحد اثنين: مفرّط في مسؤوليته، معتمد على غيره في القيام بها، ومُفرط في قيامه بمسؤوليته إلى درجة تجعله يتجاوز حدوده الفردية إلى سلطة الجماعة، وربما الحكام وولاة الأمر.

وفقدان التوازن هنا مرده إلى أسباب مختلفة أساسها -كما أشرنا- الجهل بحقيقة المسؤولية، وحدودها، وضوابط القيام بها. فالإنسان إذا لم يعرف حقيقة المسؤولية المناطة به كفرد، وحدودها، ومدى مساءلة الله له عنها، ربما قصر فيها، وفرّط بالقيام بها ظناً منه أن ذلك لا يدخل ضمن حدوده الشخصية.. وفي المقابل، فإن جهله أيضاً ربما جعله يتجاوز حدوده الشخصية، فيعتدي على مسؤولية الجماعة، أو مسؤولية ولاة الأمر، فتقع الفتنة والفوضى.

وفي كلتا الحالتين يقع الضرر على المجتمع:

ففي الحالة الأولى يؤدي تهاون الأفراد في القيام بمسؤولياتهم إلى التفريط في أمور كثيرة تتعلق بمصالح الأفراد والجماعة، فينتشر الفساد، وتتعطل المصالح وتضعف عرى الترابط بين الأفراد بعضهم البعض، وتفقد الروابط الإيمانية، والشعائر الدينية أثرها الفعّال، وتتحول إلى أشكال مجردة

لأسماء لا مضمون لها، لأن الممارسة العملية لتلك الروابط والشعائر قد فقدت من حياة الفرد، وحياة المجتمع، وبالتالي من حياة الأمة؛ وهذا يؤدي إلى تعطيل الطاقات، وإهدار القدرات، وتضييع الحقوق، بل وتضييع الأمانة التي حملها الإنسان راضياً مختاراً، بعدما أبت مخلوقات الله أن تحملها﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾[1]، وإشاعة روح الاتكالية، وسيادة العقلية الذرائعية التبريرية التي تلقي التبعة على الـ (غير)- تهرباً من تبعة المسؤولية، أو تسويغاً للحال والموقف- سواء أكان هذا الـ (غير) الجماعة، أم ولاة الأمر والحكام، الذين ينتظر منهم القيام بالمعجزات، وإصلاح الأحوال، مع التجاهل التام لكون هؤلاء - الجماعة، وولاة الأمر- ما هم إلا امتداد لهذا الفرد الذي ضيع مسؤوليته، وأحدث شرخاً في جدار الأمة .

يقول د. محمد أمين المصري : «كل هذا، مغزاه ومؤداه إلى أن الأفراد في المجتمع الإسلامي ليسوا آلات ولا أدوات. ولكنهم جانب أساسي يعمل إلى جانب القيادة

(١) سورة الأحزاب : آية٧٢.

بصدق وإخلاص ونصح. يراقب أعمال القيادة ويمحضها النصح، فهو جانب واع يقظ، ليست مسؤوليته وأعباؤه بأقل من مسؤولية القيادة وأعبائها؛ وهذه قولة عمر: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها»[1].

أما في الحالة الثانية.. فإن تجاوز المرء لحدود مسؤولياته الفردية، بتعديه على مسؤوليات الجماعة، أو مسؤولية ولاة الأمر، إن هذا التجاوز يحدث الفوضى، ويشعل فتيل الفتنة، ويوغل الصدور، ويزرع بذور الشقاق بين الجماعة، والتصدع في بنية المجتمع؛ لأن الإنسان هنا يرى أنه له الحق في تطبيق القوانين بنفسه، وممارسة صلاحيات الدولة، وهو مسلك خطر؛ ذلك أنه لو اعتقد كل إنسان أن له مثل هذا الحق، فإن الفوضى ستعم، لأن كل امرىء سيطبق ما يراه مناسباً، وما يظنه حقاً، ويزيل ما يعتقده منكراً، وإن كان الأمر غير ذلك. والحكم على الأشياء يتفاوت بتفاوت حقيقتها، ومدى إدراك القائم عليها لها، وعلمه بأصل حكمها وظروفها ولن يسلم الأمر عندها من سلطان الهوى، أو نزغة الشيطان، أو وسوسة شياطين الإنس والجن، الذين

(١) المسؤولية/ ٩٩.

يزينون للإنسان الأمر حتى يرونه الحق باطلاً، والباطل حقاً، وإذا سلم من ذلك كله، بقي أن تعدد مصادر اتخاذ القرار، وإنفاذه يؤدي إلى الفوضى، التي تسلم بدورها إلى إشعال الفتنة؛ بل والمغالاة في إصدار الأحكام- ويكفينا الواقع المعاصر الذي انتشرت فيه هذه النماذج، ومدى الضرر الذي أحدثته في مجتمعاتها، يكفينا هذا مثلاً في خطر قيام الفرد بمسؤولية الجماعة أو ولاة الأمر- هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإن انشغال المرء بالقيام بمسؤوليات الجماعة، أو الأمة، يؤدي به إلى التقصير بالقيام بمسؤولياته الفردية المناطة به، والتفريط في أدائها، فيكون الضرر في هذه الحالة مزدوجاً، إفراط فيما لاحق له فيه، وتفريط فيما هو مسؤول عنه.

وما يقال في حق الفرد، يقال مثله في حق الجماعة وولاة الأمر، فإن تقصيرهم في القيام بمسؤولياتهم، وتهاونهم فيها، يؤدي إلى ضياع الأفراد، والمجتمعات، وفتح أبواب الهوى على مصراعيها، فينتشر الفساد، ويشيع البغي، والظلم، بتسلط القوي على الضعيف، وتحكم الهوى؛ وتسهيل الطرق أمام أعداء هذه الأمة للتمكن منها فكرياً،

وعقدياً، وسلوكياً، ومادياً أيضاً، وتحويلها من خير أمة أخرجت للناس مثلاً وقيادةً، إلى تبعيةٍ ذليلةٍ لكل فكر وافد، أو منهاج غازٍ، أو ثقافة منحلة.

والمبالغة-الإفراط- في قيام الجماعة، وولاة الأمر بالمسؤولية، يؤدي إلى التعدي على مسؤوليات الأفراد الشخصية، ومصادرة حرياتهم، والتدخل في شؤونهم الخاصة، وإلغاء حقهم الشرعي في القيام بما كلفوا به من أمانة المسؤولية، وما ينتج عن ذلك من تعطيل للأحكام الشرعية من أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو صدع بكلمة حق، أو وقوف في وجه باطل، وما يسلم إليه ذلك من حجر عقلي، ووأد فكري، وقهر نفسي، وتعطيل فعلي، يوقع الظلم بأبشع صوره، وينشر البغي، ويفتح باب الهوى لأصحاب النفوس الضعيفة، والمطامع الباغية، والعداء المستكين لهذه الأمة، للعمل الجاد على إيغار الصدور بالبغض، والشحناء، والسعي الحثيث لتقسيم المجتمع وتحويله إلى فئات متنافرة يضرب بعضها بعضها الآخر[1].

(١) إن كان في التفريط بغي وظلم بين الأفراد أنفسهم، فهو ها هنا أكبر، لأنه من قبل فئة تملك القوة والسلطان، ضد فئة لا تملك شيئاً.

ومن ثم فهو يؤدي إلى النتيجة نفسها التي أدى إليها التفريط، بتسليم قيادة هذه الأمة إلى أعدائها ضعيفة ذليلة منقادة.

وحال الأمة الإسلامية اليوم -أفراداً ومجتمعات، حكاماً، ومحكومين- صورة مأساوية موجعة لتذبذبهم بين الإفراط والتفريط في مسؤولياتهم.

والخلاصة:

إن هنالك مسؤوليات منوطة بالفرد لا يمكن أن يقوم بها غيره، ومسؤوليات منوطة بالجماعة لا يصلح أن يمارسها سواهم، ومسؤوليات منوطة بالحكام وولاة الأمر لا يصح أن تتعداهم إلى غيرهم. وهذه المسؤوليات جميعاً تلزم كل واحد منهم بالقيام بما كلف به شرعاً، لأنهم جميعاً مسؤولون أمام الله أفراداً وجماعات، وحكاماً ومحكومين. ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾[1]. «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[2].

ولن يستقيم الأمر، حتى تنضبط حدود المسؤوليات. ولأجل ضبط المسألة، يلزم كل فرد من أفراد المجتمع معرفة

---

(١) سورة الصافات: آية ٢٤.

(٢) سبق تخريجه.

طبيعة المسؤولية المناطة به كفرد، وحدودها وفق المكانة التي يشغلها في أسرته، ومجتمعه، وأمته، وكذلك يعرف حدود المسؤولية الجماعية بأبعادها المختلفة، ومسؤولية الأمة، ومسؤولية الحكام وولاة الأمر، بحيث يعرف كل منهم ما له، وما عليه، ومن أين يبدأ؟ وإلى أين ينتهي؟ ومتى يتحرك؟ ومتى يقف؟.

ويدرك أن مسؤوليته تقوم على أساس التعاون، والتناصح، والتشاور، وأن التقصير في أي منها، أو الإخلال به، يؤدي حتماً إلى الاضطراب في مسؤوليته بصفته فرداً يمثل جزءاً من مسؤولية الجماعة، فالأمة، والخلل الذي يقع في ممارسته لمسؤوليته فرداً، يؤدي إلى خلل في مسؤولية الأمة.

وفي المقابل يكون وضع الجماعة مع الفرد، ووضع الحكام وولاة الأمر مع الجماعة والأفراد، فالتقصير في أي جانب من مسؤولية الجماعة وولاة الأمر ينعكس بصورة تلقائية على مسؤولية الأفراد، فيكون الخلل العام الذي تدفع الأمة -بكاملها- ثمنه. قال الله تعالى﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(١).

(١) سورة الأنفال: آية٢٥.

والحقيقة أن هذا العلم -بحقيقة المسؤولية- وحده لا يكفي، بل لا بد له من أن يكون نابعاً من منهاج الله، خاضعاً لشريعته، متبعاً لأوامره. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١).

وهذا التطبيق، والاتباع، لا يتأتى إلا إذا استشعر المسلم معية الله له، ومسؤوليته الحقيقية أمامه، وكان وازعه الديني -ضميره- يقظاً في داخله. وهو ما سنتبينه من خلال الفصل التالي -بإذن الله- الذي نتعرف فيه على العلاقة التبادلية بين المعية والمسؤولية. وكيف يتحقق الإلزام الداخلي.

(٢) سورة البقرة: آية١٤٦.

الفصل الثالث
علاقة المعية بالمسؤولية

انتهى بنا الفصل السابق إلى وضوح أهمية القيام بالمسؤولية في حياة الفرد، والجماعة، والأمة، وولاة الأمر، وأن القيام بها تكليف رباني، ومطلب شرعي لا يسقط عن أحد من المكلفين ديانةً وقضاءً، وتأكيد النصوص الشرعية على ذلك بصورة حازمة جازمة ملحة، إلا أن الاضطراب يقع في القيام بها في كثير من الأحيان، مما يؤدي إلى فقدان التوازن، وبالتالي إلى خلل في الممارسة العملية للمسؤولية، بجوانبها الفردية، أو الجماعية، أو مسؤولية ولاة الأمر، وظهر لنا مدى عمق الآثار السلبية التي يخلفها هذا الاضطراب، والخلل على كيان الأمة أفرادها، وجماعاتها، حاضرها ومستقبلها.

وكنا قد عالجنا في الفصل الأول قضية المعية، والتي تعد من القضايا العقدية الهامة في الإسلام، وبينا مدى الخلل والإضطراب الذي وقع فيها، وما نتج عن ذلك من آثار مدمرة امتدت طولاً وعرضاً في حياة الأفراد والجماعات والأمة بكاملها.

ونحن في هذا الفصل نقوم بالربط بين استشعار معية الله وتحققها في أعماق الفرد، والقيام الحقيقي بالمسؤولية، وذلك من خلال بيان طبيعة العلاقة التبادلية الحميمة بين المعية والمسؤولية، والتي استهدفت تعاليم الإسلام تأصيلها في قلوب المسلمين وعقولهم، لأنها من الأسس الشرعية التي هي مدار التكاليف الدينية وذلك من خلال مبحثين:

يتناول الأول: بيان معنى الالتزام الداخلي وحقيقته.

في حين يعرض الثاني: منهاج الإسلام في تربية الإلزام الداخلي - الوازع الديني، أو ما يسمى بالضمير -.

المبحث الأول

الالتزام الداخلي

(الضمير)

القيام بالمسؤولية بصورتها الصحيحة، يقتضي وجود التزام داخلي، يكون بمثابة القاعدة الأساسية للتوجيه الأخلاقي السليم، وبدون هذا الالتزام الداخلي لا يمكن أن يكون للمسؤولية أي وجود في حياة الأفراد والجماعات.

لذا، فقد اهتمت التعاليم الإسلامية بتربية هذا الالتزام الداخلي، أو ما يسمى بـ(الضمير)-الوازع الديني-، وتأصيله في الأفراد، وتنميته بالأسلوب الذي يكفل له القيام بدوره المأمول.

و«إن مفهوم الضمير الخلقي، في القرآن والسنة، إنما هو في مجمله: ذات أخلاقية عليا، أو رقابة ذاتية، أو وازع داخلي، يوجه الإنسان، في نواياه ومقاصده وسلوكه وتصرفاته وأقواله وأفعاله وعلاقاته ومعاملاته- وجهة خيرة متمشية مع الشرع والعقل والأخلاق والعرف الاجتماعي السليم والاتجاهات الإنسانية الرشيدة.

إن الضمير الخلقي، بالمفهوم الإسلامي، هو إحساس نفسي داخلي يراعي به (المسلم) ربه تعالى ويخشاه بالغيب، ويستشعر حضوره الدائم معه ورقابته له، وكأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله تعالى يرى (عبده) في كل الأحوال، ويعلم مافي نفسه، وما تطرف به عينه، وما يخفي صدره، وهو أقرب إليه من حبل الوريد»[1] ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[2]؛ فالإحساس بالمسؤولية، والقيام بها على الوجه الأكمل مرتبط بوجود وازع داخلي يلزم الإنسان بالقيام بما كلف به شـرعـاً، أو ديانة، وهذا الوازع -الداخلي- لا تستكمل ملامحه، ولا يقوى سلطانه إلا إذا نُشِّئ في كنف استشعار حقيقي لمعية الله، ومراقبته الدائمة له، هذا الاستشعار هو الذي يضيء جنبات النفس، وملكات العقل بنور الإيمان الصادق بالله، الخالص له؛ فيوقظ بالداخل روح الإحساس بالواجب، الذي يرتقي بطبيعة الإنسان العليا حتى تطغى على طبيعته السفلى، فيبدو لها صوت الضمير المتشبع بالوازع الديني واضحاً جلياً، يأمر وينهى، يزكي ملكات

(١) عبد الحميد الصيد الزنتاني(د) فلسفة التربية الإسلامية في القرآن والسنة/ ٣٨٧-٣٨٨.

(٢) سورة النحل: آية١٩.

الإنسان العليا، ويحميها من الانطماس تحت ركام العوامل النفسية الداخلية، أو المؤثرات البيئية الخارجية. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1]، وهو المقصود بقول المصطفى ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه» -روته أم سلمة-[2]. وهذا الواعظ الذي أشار إليه الحديث النبوي، هو الصورة الحقيقة المثلى للضمير الحي اليقظ، الذي يؤجج الإحساس بالمسؤولية، ويكون هو أساس الحكم الصحيح -للإنسان- على نواياه، وأقواله، وأفعاله، يوجهها الوجهة الصحيحة، تجاه التزام الحق، وأداء الواجب، وفعل الخير؛ ويجنبها التهاون، والتفريط، والانغماس في الشر، أو مقارفته، ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾[3].

ولأن هذا الضمير- الوازع الداخلي- الذي هو أساس الإحساس بالمسؤولية، ليس فطرياً بحتاً، ولا مكتسباً بحتاً، لكنه يجمع الجانبين، فأصله مغروس في الفطرة الإنسانية منذ

(١) سورة الشمس: آية ٧-١٠.
(٢) الديلمي، أبو منصور شهر دار بن شيرويه/ مسند الفردوس.
(٣) سورة القيامة: آية ١٤-١٥.

خلقها، لكنه يحتاج إلى التربية والرعاية والاهتمام حتى ينمو، ويأخذ شكله الصحيح، ووجهته السوية، ويسمو بصاحبه؛ أما إهماله فإنه يضعفه، ويتردى به حتى ينطمس، أو يموت نهائياً.

وبما أن الضمير -الوازع الداخلي- هو محصلة لتعاليم الدين، وأحكام العقل، ومبادىء الأخلاق، وعرف المجتمع، فقد حرص الإسلام على تربية الضمير تربية حقيقية تؤصل فيه استشعاره لأبعاد المسؤولية أمام الله، والتحقق من معية الله الدائمة له، بأبعادها الدينية، والأخلاقية، والعقلية، والاجتماعية، والإنسانية، التي تعمل على إبراز هذا الضمير -الوازع- حتى يتمكن من التمييز الواعي الصحيح بين الخير والشر، والحق والباطل، والعدل والظلم، والحسن والقبيح، والمحمود والمذموم، والمقبول والمرفوض، شرعياً، وخلقياً، وعقلياً، واجتماعياً[1].

واهتمام الإسلام لم يقتصر على التأصيل التربوي للضمير فقط، لكنه يستمر معه بتعاهده بالرعاية، والتذكير، والتنبيه المستمر، والرقابة الدائمة، لينبهه كلما غفل، ويذكره

(١) انظر: عبد الحميد الزنتاني (د)/ مرجع سابق/ ٣٨٩-٣٩٠.

حينما ينسى، ويعيده إلى طريق الحق المستقيم كلما حاد، ويرتقي به شيئاً فشيئاً حتى يصل به إلى مقام الإحسان، واليقظة التامة. ذلك أن الضمير الإنساني قد يعتريه بين الحين والحين بعض الملابسات التي تجعله يتذبذب بين اليقظة والغفلة، والتذكر والنسيان، والصحوة والسبات، والضعف أمام سلطان الهوى، أو نوازع النفس ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾، فلو ترك لهواه، وللضغوط المحيطة به قد يضل وتسيطر عليه نزوات تحكمه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[1].

ومن هنا كانت التربية الإسلامية متابعة للفرد متعاهدة لضميره، تنمي فيه الشعور بالمسؤولية الدينية تجاه ربه، وتجاه نفسه، وتجاه أهله، وتجاه مجتمعه، وتجاه أمته، بل إنها لتصل به إلى توطينه على الإحساس بالمسؤولية تجاه الإنسانية كلها التي تشاركه في الحياة، والكون بما فيه من كائنات كلها.

وهي مسؤولية من نوع فريد، لا ترتبط بالعوامل الخارجية، أو الرقابة الإنسانية، التي قد تغيب، أو تحضر، وقد تقوى أو تضعف، فيكون الإحساس بالمسؤولية متابعاً

(١) سورة القصص: آية ٥٠.

لها بالضعف والقوة، والحضور والغياب؛ فهذا النوع من الإلزام الخارجي يبقى ضعيف التأثير لارتباطه بعوامل خوف، أو طمع، يزول بزوالها، ويضعف بضعفها.

إن الالتزام -المسؤولية في الإسلام- نابع من داخل الإنسان نفسه، مرتبط باستحضاره الدائم لمعية الله له، ومراقبته الدائمة له، وبالتالي فهو مستمر على النمط ذاته من القوة، والحضور، حتى أنه يتحول إلى طابع ذاتي غير متكلف؛ وهذا يدفع بالمرء إلى القيام بواجبات المسؤولية، والتكاليف الشرعية، والدنيوية، بهدوء وسكينة، وحرص وتلقائية، لإدراكه التام أنه يتعامل مع﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (١)، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢)، ومن ثم فإن﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٣). وبالتالي يكون قيامه بالمسؤولية نابعاً من منطلق أنه يتعامل مع ربه الذي يملك كل شيء، وبيده وحده مقاليد السموات والأرض، ونواصي

(١) سورة سبأ: آية٣.
(٢) سورة الحديد: آية٤.
(٣) سورة الزلزلة: آية٧-٨.

الخلق، وهو وحـده يملك النفع والضـر، والعطاء والمنع، والحيـاة، والموت، والرزق والأجل؛ فـيكون الإخـلاص، والصدق، والقيـام بالأمـانة، تامـاً في تعـامله مع ربه، ومع الخلق، لأنه لا ينتظر من أحد جزاء ولا شكوراً، ولا يخشى منه ضراً ولا بخساً. ومن يصل إلى هذه المرحلة من التحقق الصادق بالعبودية التامة لله، يؤدي الواجبات كما ينبغي، ويتـقن العـمل، وعندها، تنضبط الأمور، لأن رقيب كل إنسان وحسيبه في داخله، لا يفارقه لحظة واحدة، يعاتبه على الزلة، ويحـاسبـه على الخطأ، ويدفـعـه إلى الخيـر والصلاح، وهذه المعاني كلها أجملتها عبارة الصادق الأمين ﷺ في قوله: «قل آمنت بالله، ثم استقم» -رواه سفيان بن عبد الله الثقفي-[١]، وهو معنى قول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[٢].

إذاً، فالإيمان الحقيقي الصادق الذي يسلم إلى استحضار معية الله الدائمة، ومراقبته المستمرة، يتضمن تلقائياً

(١) - مسلم/ م١/ ج٢/ كتاب الإيمان/ باب جامع أوصاف الإسلام/ ٨-٩.
- أحمد/ المسند/ ٣/ ٤١٣، ٤/ ٣٨٥.
(٢) سورة فصلت: آية٣٠.

الاستقامة على منهاج الله بما يستلزمه من تمثل عملي أخلاقي لمقتضيات هذا الإيمان دون إخلال بأي جزئية من جزئياته، لأن الدين كل لا يتجزأ، والقيام بالمسؤولية الدينية، أو الشخصية الفردية، أو الجماعية العامة، مطلب ديني لازم، والإخلال بها إخلال بقاعدة عقدية أصيلة، هي الإيمان بمعية الله، واستحضارها. قال الله تبارك وتعالى ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [1]. وهي كما تبين لنا، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأعمال القلب، والعبادات القلبية؛ وهذا يؤكد لنا مدى ارتباط العقيدة - في الإسلام- بحياة الإنسان المعنوية، والمادية؛ فتصرفاته، وأخلاقه، وأعماله، كلها تنبع من أسسه العقدية، وبقدر تأصل الأسس العقدية في نفسه وقلبه وفكره، يكون التزامه بالمنهاج الرباني السليم.

لذا، فإن أعمال الإنسان العملية، وتصرفاته الأخلاقية تنبىء عن حقيقة إيمانه، ومدى تمسكه بأصوله العقدية، التي هي الموجه الأول والحقيقي لحياته بأبعادها كلها.

ولأهمية هذا الارتباط، ولتأصيل العلاقة بين معتقد المسلم، وممارساته الحياتية، فقد اهتم الإسلام بهذا الأمر

(١) سورة ق: آية ٣٣.

اهتماماً كبيراً، حدد من أجله منهاجاً شاملاً وثابتاً يتحقق من خلاله هذا الأصل. وهو ما ستبينه من خلال المبحث التالي بإذن الله.

المبحث الثاني

منهاج الإسلام في تربية الضمير الأخلاقي

-الإلزام الداخلي-

للإسلام منهاجه الخاص المستمد من القرآن الكريم، والسنة النبوية في تربية الإنسان المسلم عقلاً، وقلباً، وروحاً، وفكراً، وسلوكاً، في ظل الثوابت العقدية الربانية، التي تضمن للإنسان الاستقامة الحقيقية ظاهراً وباطناً، مادياً ومعنوياً، بما يحقق للفرد التوازن الحقيقي بين فكره وعمله. وذلك من خلال تأصيل الأسس التالية في داخله.

١ - الإيمان:

بالله وحده، وإفراده بالعبادة، مع التأكيد على أنه وحده مالك الملك، والحاكم المطلق، القوي المتين، القادر المقتدر، وأن كل شيء منه وإليه يرجع، فبيده وحده مقاليد الأمور، لا يشركه في ملكه، ولا في حكمه، ولا في أمره أحد، ولا ينازعه في سلطانه أحد.

إن من ترسخت في أعماقه هذه المعاني، كانت حياته من

الله، وإلى الله، وبالله، وحصر اعتماده عليه، وطلبه منه، وسعادته في العلاقة به، فيتهذب باطنه، ويقوى إحساسه بالمسؤولية، فلا يتهاون فيها، أو يقصر، ولا يظلم أو يبطش، أو يطغى، لأنه متيقن من قدرة الله عليه؛ فيمتلىء قلبه بحب أخوانه من المؤمنين، والحرص على مصالحهم، والتعامل معهم بالخير، لأنه يتعامل في الأصل مع من لايضيع عنده مثقال ذرة من خير أو شر؛ فتعامله مع رب الخلق، لا مع الخلق، وهنا يسمو السلوك ويطيب، ويرتفع عن الدنايا، لا تغره الدنيا، ولا يعميه سلطان، ولا يطغيه غنى أو مركز.

٢ ـ المراقبة:

تهدف التربية الإسلامية إلى أن يكون الالتزام الخلقي ذاتياً نابعاً من داخل الإنسان نفسه بعمق وأصالة، لا مفروضاً عليه من سلطة خارجية، وذلك من خلال تأصيل استشعاره لمراقبة الله الدائمة له «واليقين بأن الله مطلع عليه أينما كان، وعلى أية حال وجد، وأنه عالم بأسراره رقيب على أعماله»[(١)]، بحيث يكون خضوعه للالتزام الداخلي مستمداً من رقابة الله عليه، لا من رقابة الناس؛ فهو وإن غاب عن

(١) سفيان بن سالم درامي/ الإسلام ومبادىء الأخلاق/ ٨٨.

أعين الناس والرقباء، لا يغب عن عين الله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1] ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2] ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[3] ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[4]، ومن تأصلت هذه الحقائق في داخله اتقى الله حق التقوى، وخشيه حق الخشية، وأطاعه في السر والعلن، والقول والعمل، والحركة والسكون، والخلوة والمخالطة[5]، فيصلح سره وعلانيته، ويكون ظاهره صورة حقيقية لباطنه، فيعمل بصدق، وإخلاص، وإتقان، وإن كان في غيبة من الناس، «فالمراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب»[6]، ذلك أن الإنسان إذا لم يرتدع من داخله خشية لله، ومراقبة له، فإنه يستطيع أن يتحايل، ويخادع بأساليب

(١) سورة النساء: آية١ .
(٢) سورة يونس: آية٦١ .
(٣) سورة هود: آية ٥ .
(٤) سورة الملك: آية ١٣ .
(٥) عبد الحميد الزنتاني (د)/ مرجع سابق/ ٣٩٤-٣٩٥ .
(٦) الغزالي/ إحياء علوم الدين/ م٤/ ج١٥/ ٢٧٤٦ .

مختلفة، ووسائل متنوعة، في حضور السلطة الخارجية وغيابها، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1].

٣ ـ الجزاء الخلقي:

من وسائل الإسلام في تربية الالتزام الداخلي-الضمير- استخدام الجزاء بصفاته المتعددة، المعنوية والمادية، الدنيوية والأخروية، بإثابة المحسن، وعقوبة المسيء، مستخدماً في ذلك أسلوبين متمايزين: الترغيب.. والترهيب.. ذلك أن النفوس الإنسانية ليست على شاكلة واحدة؛ فبعضها يؤثر فيه الترغيب والوعد الحسن الذي يحرك المشاعر ويشجعها على العمل والاستقامة، والتوجه إلى الخير.

والبعض الآخر، لا يفيد معه سوى أسلوب الوعيد الشديد، والتخويف من العقوبة، ومن ثم فالترهيب هو الطريق إلى تحريكها، وهزها من الداخل لتثبيتها على طريق الحق، والاستقامة.

ومن ثم فقد تراوحت أساليب الكتاب والسنة في الأمر

(١) سورة ق: آية ١٦-١٨.

والنهي بين الترغيب والترهيب.

أ- الترغيب:

يرغب الإسلام بالأعمال الصالحة، والمعاملات الصادقة، والممارسات العملية الحقيقية للقيام بالمسؤولية وأداء أمانة التكليف، ويعد من استقام على طريق الحق، والتزم منهاج الله، بجزيل الثواب، والمضاعفة التي لا حد لها للأجر، مهما كان حجم العمل المؤدى ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[2]، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[3]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾[4].

فالفرد المسلم متى ما تيقن من أنه إن أصلح عمله، وصدق في نيته، وأخلص توجهه، وتعامل في ذلك كله مع ربه وحده قياماً بما كلف به، وأداء لأمانة مسؤوليته، ابتغاء

(١) سورة البقرة: آية ٢٦١.
(٢) سورة الزلزلة: آية٧.
(٣) سورة النازعات: آية ٤٠-٤١.
(٤) سورة الكهف: آية ١٠٧-١٠٨.

مرضاة الله أولاً، ثم الحصول على الوعد بالنجاة في الآخرة، وما يستتبعه هذا من سعادة في الدنيا، ورضى بما قسم الله له، هدأت نفسه، وارتاح ضميره، وأدى ما عليه تاماً كاملاً، بقدر جهده وطاقته وسعته، والمتاح من إمكاناته، بل إنه ليجتهد في بذل المزيد كلما تذكر وعد الله تبارك وتعالى فيما رواه الصادق الأمين ﷺ عن ربه حين قال: «قال تعالى: أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾» -رواه أبو هريرة-[(١)].

إذا تذكر هذه الوعود من ربه هان عليه ما يلاقيه كله من مشقة وعناء، وتعب في القيام بما كلف به، واستهان بكل عداوة، ومحاربة قد يلقاها في طريق الاستقامة، لأن ما أمامه خير وأبقى مما هو فيه.

ب - الترهيب:

حرص الإسلام حرصاً كبيراً على حماية الفرد والمجتمع

(١) - فتح الباري/ م٦/ كتاب بدء الخلق ٥٩/ باب ما جاء في صفة الجنة ٨/ ٣٢٤٤/ ١٨.
- مسلم/ م٩/ ج١٧/ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ ١٦٦. وفيه زيادة.
- ابن ماجه/ السنن/ م٢/ كتاب الزهد ٣٧/ باب صفة الجنة ٣٩/ ٤٣٢٨/ ١٤٤٧.

من العثرات الأخلاقية، التي قد تؤدي بهما إلى هاوية الانحلال والتفكك؛ وبالتالي كان الاهتمام بالمحافظة على وحدة كيان الإنسان، ووحدة كيان المجتمع، وتطهيرهما من أدران الضعف النفسي، والآفات الأخلاقية التي قد تدمر كيانهما، إذا وهت عرى الإحساس بالمسؤولية والقيام بها فردياً، وجماعياً، وما يمكن أن يؤدي إليه ذلك من نتائج في غاية الخطورة.

وكما استخدم الإسلام قاعدة الثواب ورغب فيها من أجل تحفيز النفوس الصالحة على العمل، والقيام بالمسؤولية؛ فإنه أرسى قاعدة العقاب، أو مايسمى بالجزاء، ورهب منها لردع من تسول له نفسه ارتكاب مخالفة شرعية، أو انحراف أخلاقي، لضعف في نفسه، أو قوة في الدافع والمغريات؛ فمثل هذا الإنسان حين يتذكر أن الأمر ليس هملاً، لكنه يستتبع عقوبة صارمة دنيوية، أو أخروية، إن هذا التذكر، أو الاستحضار لترهيب الوعيد يحرك النفس المسيئة ويهزها من الداخل للعودة عن الغي والضلال، ويردعها خوفاً من العاقبة. وهذا ما يعين على الكف والانتهاء عن مقارفة الإثم. قال تعالى﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ

تُجزَوْنَ إلاَّ ما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1]، ﴿ولَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]، ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾[3]، ﴿ومَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[4]، ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ﴾[5]، ﴿إلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ ورِسَالاتِهِ ومَن يَعْصِ اللَّهَ ورَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[6].

إن هذا الوعيد الرباني، ومثله كثير في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وسيلة فعّالة لإحياء الضمير الأخلاقي، وإذكاء روح الإلزام الداخلي، والإحساس بالمسؤولية في نفس المسلم، ودفعه إلى القيام بأداء ما كلف به شرعاً وديانةً بقوة وعزم، من منطلق استحضاره لمعية الله ومراقبته الدائمة له﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[7].

---

(١) سورة النمل: آية ٩٠.
(٢) سورة فصلت: آية ٢٧.
(٣) سورة النحل: آية ٤٥.
(٤) سورة الزلزلة: آية٨.
(٥) سورة طه: آية ٧٤.
(٦) سورة الجن: آية ٢٣.
(٧) سورة الحديد: آية٤.

فبالحواس والعقل تحمل الإنسان مسؤولية الإدراك والتمييز، والفهم والوعي، واتخاذ الأحكام والمواقف، وبالإرادة والحرية تحمل مسؤولية الاختيار، وبالقدرة النفسية والبدنية تحمل مسؤولية التكليف الديني والدنيوي وأعبائهما[1]، ومن ثم فهو يتحمل مسؤولية الإخلال بذلك كله﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[2].

إن هذا الوعيد الرباني يؤكد للإنسان أنه سيلقى نتيجة عمله من خير أو شر﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴾[3]، فمآله إلى ربه، وبالتالي فلا فرار من جزائه ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾[4]، ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا

(١) عبد الحميد الزنتاني (د)/ مرجع سابق/ ٤٢٠.
(٢) سورة يونس: آية ٢٧.
(٣) سورة النجم: آية ٣٩-٤١.
(٤) سورة الأنعام: آية ٦١-٦٢.

تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[1]، ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[2]، ولا فدية من عقوبته ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3]، ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ﴾[4].

وهكذا، يربي الإسلام الإنسان المسلم على أسس الالتزام الحقيقي الناشىء عن عقيدة صحيحة، مرتبطة بالإيمان بمعية الله التي لا تغيب، والتي تنمي الضمير اليقظ، الذي يلزم صاحبه القيام بالمسؤوليات المنوطة به، لا بوصفها واجب إنساني فقط، ولكن بكونها التزام شرعي، وتحقيق لمعنى العبودية الحقيقية لله.

(١) سورة الأنبياء: آية ٤٧.
(٢) سورة القيامة: آية ٣٦.
(٣) سورة المائدة: آية ٣٦.
(٤) سورة الزمر: آية ٤٧.

الخاتمة

انتهت بنا الفصول الثلاثة السابقة إلى بيان مدى عمق العلاقة التي تربط بين استشعار الإنسان المسلم لمعية الله له، وقيامه بمسؤولياته المناطة به، وأنه كلما ازداد شعوره بهذه المعية الإلهية، تعمق إحساسه بالمسؤولية تجاه ربه، ونفسه، وأسرته، ومجتمعه، وأمته، وقيامه بواجباته تجاه هذه المحاور كلها؛ والعكس صحيح، فكلما ضعف، أو وهن استشعاره لمعية الله له، ضعف في المقابل إحساسه بالمسؤولية، وقيامه بواجباته؛ فالأصل في قيام المجتمع، والأمة بمسؤولياتهما الدينية، والدنيوية، هو تحقق إيمان الفرد بحقيقة معية الله له، ووضح أبعادها في أعماقه، وما يترتب على ذلك من قيامه بمسؤولية أمانة التكليف والخلافة على الأرض.

ذلك أن الارتباط بين القاعدة وما يقام عليها من بنيان، أو بين النظرية والتطبيق، أو الممارسة، أمر حتمي؛ فأي خلل، أو ضعف، أو انحراف في القاعدة، أو في النظرية، يظهر أثره واضحاً في الممارسات التطبيقية لها.

وبذا، فإن أي خلل، أو قصور في تحقق الإنسان من معية الله له، يظهر أثره جلياً في سلوكياته العملية، والمعنوية، مما

يترتب عليه في كثير من الأحيان قصور بين في قيامه بمسؤولياته، وأدائه لواجباته، لافتقاده الوازع الديني المبني على إيمانه برقابة الله الدائمة له، أو عدم وضوح حقيقة هذه المعية الإلهية بأبعادها الإيمانية التي تحول بين الإنسان والوقوع في التقصير، أو التفريط بالمسؤولية المناطة به على اختلاف أنواعها، وتباين درجاتها؛ لأن الأصل في القيام بها، هو التزام داخلي لا علاقة له بالمؤثرات الخارجية -الرقابة الإنسانية- التي بإمكان الإنسان التخلص منها، أو التحايل عليها بصورة أو بأخرى.

ومنه هنا، فقد سعى الإسلام إلى ترسيخ الحقيقة الإيمانية بمعية الله وإحاطته الدائمة بالإنسان، بصورة لا تغيب فيها الرقابة الإلهية لحظة واحدة، مؤكدة عليه ربط هذه المعية بحسن أدائه للعمل، وتحقيق أبعاد المسؤولية «أن تعبدالله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

لأجل هذا فـ«إن الإسلام يدعو إلى مجتمع، تنمو معطياته على كل المستويات: الروحية، والاجتماعية، والطبيعية. وثمة ما يبدو واضحاً في كتاب الله: أن كل آية

(١) سبق تخريجه.

تتناول مسألة طبيعية، أو حيوية، أومادية، تنتهي بأفعال التقوى، والإيمان، بالدعوة إلى ربط أية فاعلية بالله، وهذا التأكيد المتكرر له مغزاه. إن منطق التوازن الحركي، الذي يرفض الانحراف، أو السكون، هو القاعدة التي نتلمسها في القرآن الكريم بوضوح، من خلال عدد كبير من آياته، والتي تكفل نمواً سليماً، لأي مجتمع يريد أن يحافظ على تجربتي الروح، والمادة، ولا تنحرف باتجاه أحدهما مهملة الأخرى، أو ضاغطة عليها، مستخدمة إزاءها، أساليب القمع، والكبت، والتحديد»[1] ذلك أن الالتزام الإيماني، للفرد والمجتمع المسلم، يهدف إلى تكوين أخلاقية خاصة بالفرد والجماعة، تنبثق في أعماق الفرد، ثم ما تلبث أن تعكس ألوانها على علاقات الفرد الاجتماعة، وقيامه بمسؤولياته، التي تمثل مركز الثقل في حياته كلها، ومسيرته، وقيمه، وتأصيلها، في أعماق نفسه، وأعماق بنية مجتمعه، وأمته. لتشكل في النهاية درعاً يحميه من السقوط في متاهات الحيرة والقلق، وعدم المبالاة. «ولا جدال في أن القيم الخلقية المنبثقة عن الرؤية الإيمانية، والحس الديني، تكتسب

(١) عماد الدين خليل (د)/ رؤية إسلامية في قضايا معاصرة/ ٩-١٠.

موضوعية في ميدان العلاقات، وعمقاً في ميدان الذات، لا نجد معشارها في الأخلاقيات الوضعية، المبنية على الموقف المصلحي، إنها آنذاك سوف تفتقد موضوعيتها، وشموليتها، وتقع في أسر التحيز والنسبية، فتحور وتزيف حيناً، من أجل أن تلائم مصلحة ما، أو منفعة معينة، وتلغى أو تستبعد، حيناً آخر، لأنها لا تنسجم أساساً، ومتطلبات الموقف النسبي، هذا إلى أن هذه القيم ستفقد بعدها العمقي، وتغدو أكثر قلقاً واهتزازاً، الأمر الذي يفقدها قوتها الإلزامية، وثباتها وديمومتها»[1].

وهذا ما يجعل الالتزام المبني على القاعدة الإيمانية الصحيحة المتمثلة لحقيقة معية الله الدائمة للإنسان، يختلف اختلافاً كلياً عن أي نوع آخر من الالتزامات القائمة على أسس دنيوية قابلة للتجاوز.

ومن هنا، كان الوضع المتردي الذي يعيشه العالم الإسلامي بأفراده، ومجتمعاته، وما نشأ عن ذلك من تهاون بالمسؤوليات، وتضييع للحقوق، والواجبات الدينية منها، والدنيوية، يرجع في أصله إلى غياب الوعي الحقيقي بأبعاد

(١) المرجع السابق نفسه/ ١١٣.

القضيه الإيمانية القائمة على أساس «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» التي اقتصر العمل بها عند كثير من المسلمين على ظاهر معناها، دون الالتزام بحقيقة مقتضاها؛ ومن ثم فقد تحول الإيمان من اعتقاد، وقول، وعمل، إلى اعتقاد وراثي، وقول ظاهر، وعمل ناقص. هذا الفهم المختل، أدى إلى الاعتقاد المدخول، ومن ثم العمل الذي قد يخالف في أحوال كثيرة حقيقة المعتقد، ومقتضياته.

ومن أجل إصلاح هذا الخلل الخطير في قلب الفرد، والمجتمع، والأمة، وواقعهم؛ فلا بد من إصلاح القاعدة الإيمانية داخل أنفسهم، وفي واقع حياتهم، لتكون على الصورة التي ارتضاها الله لهم. وهذا لن يتحقق إلا إذا أدرك المسلمون حقيقة ما هم فيه من غبش عقدي، أفسد عليهم إيمانهم، وضيع عليهم واقعهم. وعملية الإدراك هذه وما يترتب عليها من وعي بسوء الواقع، ثم سعي لإصلاح ما بداخل النفس تمهيداً لإصلاح الواقع من منطلق قول الله تبارك وتعالى﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1]، يستلزم منا العودة في عملية الإصلاح هذه إلى القاعدة

(١) سورة الرعد: آية١١.

الأولى التي ينطلق منها الفرد، ألا وهي:

التربية الإيمانية الحقيقية، التي تنشىء الفرد على حقيقة أن الإيمان بالله كل لا يتجزأ، وأن الإيمان الحقيقي الكامل، لا يتحقق إلا إذا تحول هذا الإيمان من معتقد في القلب، إلى ممارسة عملية تظهر واضحة جلية في كل جزئية من حياة الفرد بأبعادها المعنوية، والمادية كلها.

وعملية التربية الإيمانية الصحيحة تقتضي تعاون الوسائط التربوية كلها في تحقيق هذا المقصد الهام.

أ- البيت: لابد له أن يعود إلى ممارسة دوره التربوي الأصيل، في غرس العقيدة الإيمانية الصحيحة لدى الناشئة، من خلال: تقديم المفهومات الإسلامية الصحيحة، والقدوة التربوية الصالحة، التي تترجم القيم، والمبادىء الدينية واقعاً عملياً في ممارساتها اليومية: المعنوي منها، والعملي، بحيث يخلص البيت من التناقضات الحادة بين القواعد الإيمانية، والممارسات العملية، المشوبة بالكثير من العادات، والمفهومات، التي خالفت كثيراً، أو قليلاً المنهاج الإسلامي. وذلك نتيجة لعوامل الانفتاح التي حاصرت البيت المسلم بضغوط كبيرة سلبته دوره في عملية تربية الناشئة تربية

إيمانية ؛ بل لقد أخضعت أقطاب الأسرة -الوالدين- للعيش في جو مفعم بالتناقضات بين الأصول، والمستجدات، مما انعكس بآثاره على أنماط التربية المطبقة في داخله.

ومن ثم، فلا بد للبيت من التخلص من عالم المتناقضات الذي يعيشه في ممارساته المعنوية، والعملية، من أجل تربية الناشئة على المبادىء والقيم الإسلامية، المستمدة من الأسس العقدية، والتي ينبغي تخليصها مما ران عليها من الدخل، والشوائب.

فمن خلال التدريب النفسي، والمران العملي يمكن ترسيخ القاعدة الإيمانة، والعملية الصحيحة، لتكون سجية تحرك الفرد، وتدفعه إلى ممارسة متطلباتها بصورة ذاتية خالية من التكلف، أو الافتعال. وعندها تبدأ بذور الإحساس بالمسؤولية تنمو، وتتأصل مع النمو العمري، والإيماني، مرسخة قاعدة: إن الأصل في وجود الإنسان هو تحقيق العبودية لله وحده، بما تستلزمه حقيقة العبودية من أبعاد، ومعاني، معنوية، وعملية.

ب - التعليم: لابد للتعليم في مراحله المختلفة، ومستوياته المتعددة، وتخصصاته الكثيرة من أن يخرج عن الدائرة الضيقة التي حصر نفسه فيها بأسلوب التلقين الجامد-

على الأخص العلوم الدينية- الذي يقدم مادة علمية بحتة، يطالب بعدها الطلاب بالحفظ المجرد، الذي تنتهي آثاره بظهور نتيجة الامتحانات - إلى عالم التربية الذي لا حد له، بحيث يقوم المعلم بربط العملية العلمية بالتربية، وإخضاعها للممارسة الدينية، التي تعمل على تكوين الشخصيات الإسلامية السوية، من خلال: تشكيل الإرادات، واكتشاف الطاقات، والتزويد بالمهارات، التي تعين الفرد على التعامل مع الواقع، والسعي لارتقاء أرفع درجات المثل الأعلى، وجعل الفرد يعيش حقيقة العلاقة بينه، وبين الكون المسخر، له، وربط ذلك كله بالقاعدة الرئيسة، علاقة الإنسان بربه، وتحقيق مقاصد دينه، مما يساعد على تأصيل حقيقة القيام بالمسؤولية بشقيها: الديني، والدنيوي؛ بحيث يستكمل التعليم تنمية الأسس التي يغرسها البيت، وبحيث يسيران جنباً إلى جنب في إعادة صياغة الشخصية المسلمة بأبعادها المختلفة - النفسية، والوجدانية، والسلوكية -وفق الثوابت الإيمانية التي تحصن الفرد من عوامل الهدم الخارجية، والتي تنصب عليه من كل مكان؛ وهذا يتطلب:

* إعادة صياغة مناهج التعليم، بمحتوياتها، وبرامجها،

وهياكلها، وتوجهاتها، والقائمين عليها، والممارسين لها- المعلمون، والمسؤولون- ، وفق القواعد الإيمانية، والأسس الإسلامية، والتخلص من العلمنة بظاهرها، وباطنها «فالتعليم هو الذي يشكل ذهنية المجتمع، ويضع الملامح التي سوف تنطبع بها عبر الأجيال المتعاقبة شخصية الأمة»[1].

ففلسفة التعليم ينبغي أن تنبع من أسس تربوية مستمدة من عقيدة الأمة، وتراثها، وفكرها، واحتياجاتها. فالتعليم الحقيقي: تربية وسلوك، وعلم، وفهم، وحركة، وانضباط.

قال الله تعالى﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2]. إن هذه الآيات الكريمة ينبغي أن تكون هي القاعدة التي ينطلق منها التعليم التربوي الهادف، إلى تنمية الذات الإنسانية.

* تخليص نظم التعليم ومناهجه من النظم المستوردة التي لا تناسب احتياجات المجتمع المسلم، ولا تصلح لحل

(١) أحيمده النيفر/ القيم التربوية وبناء الشخصية الإسلامية المعاصرة (بحث مقدم للمؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي) المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية/ م٢/ ٨٧٩.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٩٠-١٩١.

مشكلاته، ولا توافق إمكاناته، وخصوصية مجتمعاته، لأن فيها بذور التدمير للفرد، والانهيار للمجتمع والأمة.

* التأكيد على أن يكون اهتمام المؤسسات التعليمية مركزاً على بناء الشخصية الإنسانية، لأن هذه هي قضية التعليم الأولى، لا على الاهتمام ببناء المنشآت التعليمية- وإن كانت ضرورية- وإهمال الإنسان، والعمل على تأصيل العقيدة الصحيحة وتنميتها في المراحل الدراسية جميعها، بدءاً بمرحلة الروضة، وانتهاءً بالمرحلة الجامعية، وما فوقها، وربط الأسس العقدية بالواقع المعاش، لتكون هي الأصل في تفكير الفرد، وتعامله، وعمله.

* التأكيد على أن الهدف من العملية التعليمية يجب ألا يحصر في إطار منح الشهادات، أو الدرجة العلمية، ولكن يتعداه إلى تعليم الفرد القدرة على التحكم في النفس، وضبط التصرفات، والاعتقاد بالقيم الأخلاقية، والمبادئ الرفيعة، والالتزام بها، والإيمان بمثل عليا يحيا لها، ويموت لأجلها[1]. من منطلق كونه عبداً لله وحده.

(١) زغلول راغب النجار (أ.د)/ أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية/ ٣٢.

* ضرورة تطبيق التوصيات التي انبثقت عن المؤتمر الأول للتعليم الإسلامي - وما تبعه من مؤتمرات إسلامية، خاصة بالتعليم -، وإخراجها من كلمات رسمت سطوراً على الورق، إلى أن تكون واقعاً معاشاً، يرتقي بالفرد، وبالمجتمع، وبالأمة المسلمة إلى تحقيق حقيقة الخيرية التي وصفها بها القرآن الكريم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

إذن، هي الخيرية التي ترجمت فيها العقيدة إلى علم، والعلم إلى عمل؛ وربطت العلم بالعمل والعقيدة.

ج- الإعلام: لقد عمل الإعلام في هذا العصر، ونتيجة لعملية التواصل الإعلامي، والبث المباشر عبر القنوات الفضائية التي لا تخضع في مجملها للرقابة، ولا لأهداف تربوية، أو تثقيفية، وإنما تركزت أهدافها على الربح المادي، مهما كانت نتائجه، ووسائله؛ وتمشياً مع سياسة التمييع الثقافي، ونشر الفساد، عمدت إلى تضييع مفهوم الفرد، وإلغاء خصوصيات المجتمعات، بالغزو المباشر حيناً، والخفي أحياناً أخرى، في محاربة المعتقدات، والقيم والمبادئ، وتهوين صلة الفرد بربه، وبأهله، وبمجتمعه،

(١) سورة آل عمران: آية ١١٠.

وبأمـتـه، مما أدى إلى نشـأة أجـيـال تربت على هذا الزخم الإعلامي المسموم، الذي عمل على فصلهم عن ما يربطهم بأصولهم كلها؛ بل وتعمية معـالم مستقبلهـم، سعياً إلى تأصيل عملية البتر النفسي، والعملي بين الأجيال المسلمة، وما يربطها بماضيها كله، بعد قطع صلتها بأصولها العقدية، وأسسها الشرعية، من خلال تمجيد النموذج الغربي. يقول أولفييه روا، في كتابه [تجربة الإسلام السياسي]: «الأسرة الحديثة هي خير استهلاك قبل أي شيء آخر: تلفزيونات، أشرطة فيديو، . . الخ».

والإسـلاميـون لن يسـتطيـعـوا احتـواء هذا الاستهـلاك ولجمه، لأن الشريعة تحمي الحرمة العائلية الحميمة والحال المتداول في الأسرة المدينية هو نقيض نمط الحياة الإسلامي، إنه نتـاج غـربي. فليس ثمـة «هـوايات» إسـلاميـة، والأنماط الثقـافيـة الجـديدة «أشـرطة الفـديو» تفـتح في قلب الهـوية الإسلامية، ونواتها الأساسية، وحتى ولو لم تكن النتيجة «غربنة» السلوكيات على الإطلاق؛ بل مجرد تأليف وتجاور بين منظومتين»[1].

(١) ١٨٧ (يتحدث هنا عن المملكة العربية السعودية).

الحقيقة: إن الإعلام استطاع بوسائله المختلفة (غربنة) الفكر، والسلوك، ونمط الحياة لدى الأجيال الناشئة؛ بل تجاوزها إلى ماهو أخطر من ذلك نشر التشكيك العقدي، والفساد الأخلاقي، والتمييع السلوكي؛ والتصدي لحرب القيم الإسلامية، والمبادئ العقدية، والفضائل السلوكية. وما تعانيه المجتمعات الإسلامية من مشكلات نفسية، وسلوكية، إلا حصاد ما تبثه وسائل الإعلام فيها، التي خرجت عن صراط الله المستقيم، وسارت في ركب شياطين الأرض المفسدين. ويبقى الحل في انتشال الفرد المسلم من هذه الازدواجية، وهذا الضياع يكمن في إصلاح الإعلام بوصفه أحد وسائط التربية وذلك من خلال:

* تحرير الإعلام الإسلامي من ربقة التقليد والتبعية للإعلام العالمي الذي يسيطر عليه اليهود.

* العمل الجاد على إيجاد بدائل إسلامية صحيحة تلبي احتياجات الفرد ومتطلباته، يمكن أن تقف في وجه القنوات الفضائية التي باتت تقتحم على الإنسان حياته، وتحاصره في كل مكان.

* إيجاد نظام إعلامي إسلامي متكامل (مرئي،

ومسموع، ومقروء) له شخصيته الإسلامية الواضحة المستقلة.

* الاهتمام بإعلام إسلامي صحيح موجه للطفل، وللناشيء المراهق، لحمايته من أمواج الغزو الفكري والسلوكي، التي تهدده بالغرق في محيطات الضياع، والسلبية، والتقليد الأعمى للغرب.

* تحويل وسائل الإعلام من وظائفها الترفيهية الهابطة العابثة المفسدة، إلى وظائف تربوية توجيهية ترسخ الإيمان، وتنمي الفكر، وتوسع الثقافة، وتبني الشخصية السوية.

* اختيار القيادات الإسلامية الصالحة المربية لتولي وضع سياسة إعلامية مناسبة، والقيام عليها، للوقوف في وجه العابثين، والمغرضين، ومنعهم من تحقيق أهدافهم في إفساد أجيال الأمة الإسلامية، وتمييع شبابها، ومسخ هويتهم الذاتية.

د- المسجد..

لقد كان المسجد عبر تأريخ المسلمين هو الركيزة الأولى في صنع الإنسان المسلم، تعليماً، وتربية، وتوجيهاً؛ فقد كان المسلمون يتعلمون فيه أمور دينهم، ودنياهم، عن طريق

الدروس، والخطب، التي جعلت من المسجد جامعة حقيقية تخرج: العلماء، والدعاة، والقواد، والخلفاء؛ فمنه ينطلق العلماء، ومنه تسير الجيوش، وفي ساحاته ينتخب الخلفاء، وتكون البيعة، وفي أروقته تبحث قضايا الأمة سلماً وحرباً؛ وفيه تتربى الأجيال على: أصول الإيمان، وأسس العقيدة، وقواعد الشريعة، ومبادىء الأخلاق، وركائز القيم، وروابط الأخوة.

ومن ثم فقد كان ارتباط المسلم بالمسجد منبثقاً من ارتباطه بدينه، ولا يقل بحال عن ارتباطه ببيته، وأسرته؛ بل ربما فاق دور المسجد دور الأسرة والبيت، ودور التعليم، في ترسيخ الدين الصحيح، الذي يجعل المسلم يحيا دينه واقعاً عملياً، يمارس من خلاله الأسس العقدية، والقواعد الشرعية، والمبادىء الأخلاقية التي أمره بها الله وارتضاها له.

هذا الواقع المشرق الفعّال لدور المسجد في حياة المسلمين طيلة قرون، فقد الكثير من إشراقه، وخبا ضوؤه في هذه الأيام؛ فعلى الرغم من ازدياد اهتمام الناس بتعمير المساجد، وتنافسهم في الإنفاق على بنائها، والحرص على زخرفتها، إلا أن الاهتمام بإعمارها قل كثيراً. حتى كادت المساجد تفرغ

تماماً من محتواها الحقيقي، ويضيع جوهرها، وتغتال روحها المحركة للحياة. في مقابل الحرص على أشكالها الظاهرية- وما هذا التحول إلى الاهتمام الظاهري إلا صورة من صور التسطيح التي تعاني منها هذه الأمة.

لقد تقلص دور المساجد إلى درجة جعلتها لا تفتح إلا في أوقات محدودة لأداء الصلوات الخمس -التي لا يحضرها إلا قلة من الناس-، أو الجمع والأعياد. وقد يتجاوز بعض المساجد هذا الوضع إلى عقد حلقات تحفيظ القرآن -وهو تحفيظ مجرد، لا يربط فيه القرآن بالواقع-، أو بعض الدروس الشرعية التي تتسم غالباً بالجمود، والرتابة، فلا يكون لها أي مردود فعّال في حياة الفرد العملية.

لقد كان لعزل المسجد، وفقدانه دوره الفعال في حياة المجتمع الدينية، والدنيوية، أثره الواضح في توهين صلة المسلمين بحقيقة دينهم، ومبادىء شريعتهم؛ فلم يعد الآباء يحرصون على صحبة أبنائهم إلى المساجد ليتربوا على الارتباط بالله؛ بل لقد تقلص رواد المساجد فلا تراه يمتلىء إلا أيام الجمع، أو الأعياد!!- وحتى خطبة الجمعة، والعيدين لم تسلم من الجمود، وعدم الفاعلية، والبعد عن الواقع في

أحيان كثيرة-.

والحقيقة أن استبدال المؤسسات التعليمية النظامية بدور المسجد في عملية ترسيخ المبادىء الدينية، والقيم الأخلاقية، كان خطأً كبيراً؛ ذلك أن للمسجد رسالته الخطيرة الهامة التي لا تستطيع أي مؤسسة أخرى القيام بها في عملية التأصيل الشرعي، والتربية الدينية، وربط المسلم بربه، ودينه؛ فدور العلم النظامية تقتصر فائدتها على فئة معينة من المجتمع هم الطلاب، في حين أن للمسجد رسالته العامة التي تخاطب أفراد المجتمع كافة، على اختلاف مستوياتهم العلمية، وتفاوت ثقافاتهم، وتباين طبقاتهم الاجتماعية. تلك الرسالة التي تخاطب القلب والعقل معاً، وتوجه الفرد توجيهاً إيمانياً حياً يحرك حياته بصورة إيجابية؛ وبالتالي فلا يصح أن يستعاض عن دور المسجد بأية جهة أخرى في عملية البناء التربوي الإيماني الديني، والتوجيه الأخلاقي العملي.

ولكي يستعيد المسجد دوره الحيوي، وتكون له رسالته الفعّاله في توجيه دفة حياة الفرد، والمجتمع، والأمة إلى مكانها القديم في قيادة الأمم، فلا بد من تحقق الآتي:

* أن يتولى إمامة المساجد علماء عالمون عاملون،

يجمعون إلى جانب العلم الشرعي، الفقه بالواقع، لكي يتمكنوا من ربط تعاليم الدين بالواقع المعاش في حياة الناس.

* أن تعقد في المساجد حلقات علمية شرعية، تدرس فيها العلوم الدينية المختلفة، بأسلوب رصين عميق ميسر يفهمه رواد المسجد على اختلاف طبقاتهم، وتنوع تخصصاتهم.

* أن تقام في المساجد حلقات للحوار المفتوح، والنقاش الجاد البناء تطرح من خلاله مشكلات المجتمع، وقضايا العصر، ويبحث فيها عن الحلول الشرعية التي تعين الفرد على التخلص من الازدواجية، والحيرة، والقلق، والضياع، والتخبط في دوامة الثقافات الوافدة.

* أن تقام في المساجد حلقات للذكر، والوعظ، تحيي القلوب، وتنشط العقول، وتزيل عنها ما ران عليها من غبار المادية، والركض اللاهث وراء تحصيل لقمة العيش، والانغماس في خضم حضارة هذا العصر الزائفة في كثير من جوانبها.

* أن يتجنب في ذلك كله: التزمت الديني، والتعصب المذهبي، والتحزب الطائفي، والجمود الفكري، والإثارة العاطفية المفتعلة.

* أن تعاد للمنابر حريتها، فلا تخضع لأي سلطة سوى السلطة الشرعية وفق كتاب الله وسنة نبيه المصطفى ﷺ، بحيث تكون كلمة الحق، والدعوة إليه هي الحاكم المسير له، وتكون للمساجد استقلاليتها التامة، لكي تتمكن من القيام بدورها الحقيقي الذي حدده لها الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[1]. فقيام المساجد بدورها الحقيقي مرتهن بتمتعها بحريتها واستقلاليتها التامة في إطار الأحكام الشرعية.

والخلاصة:

إن تحقق الإيمان الصادق، والعبودية الحقيقية لله، بما يقتضيه هذا الإيمان، وهذه العبودية من القيام بمسؤولية التكليف الدينية، والدنيوية، مرتبط بترسيخ حقيقة معية الله للإنسان، تلك المعية التي تسبغ على وجوده القيمة، وعلى حياته المعنى، وعلى علمه الفائدة، وعلى عمله الإتقان،

(١) سورة الجن: ١٨.

تقتضي أن يتعاون البيت، والتعليم والإعلام، والمسجد جميعاً على زرعها في أعماق الفرد، وتنميتها، ورعايتها حتى تثمر مسلماً سوياً، فاعلاً، متفاعلاً، خالياً من العقد والمتناقضات، بعيداً عن السلبية والتسطيح. وهذا لن يتأتى إلا إذا عاد كل منهم إلى القيام بدوره الحقيقي الذي كان عليه في عصور الإسلام المشرقة﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١).

ثبت المراجع

القرآن الكريم

١ - أحيمده النيفر .

القيم التربوية وبناء الشخصية الإسلامية المعاصرة (بحث)، ضمن كتاب : المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية، بحوث ومناقشات المؤتمر الرابع للفكر الإسلامي -ط٢- الرياض : الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ١٤١٦هـ -١٩٩٥م .

٢ - البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين .

كتاب الأسماء والصفات، تحقيق وتعليق : عبد الله بن محمد الحاشدي، تقديم : مقبل بن هادي الوادعي -ط١- جدة : مكتبة السوادي، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

٣- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة .

الجامع الصحيح (السنن)، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر -د. ط- القاهرة : دار الحديث، -د. ت- .

٤ - ابن تيمية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم .

الحسبة في الإسلام، تحقيق : محمد زهري النجار

-د. ط- الرياض: المؤسسة السعيدية -د. ت- .
٥- درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم -ط١- الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٦- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور -د. ط- القاهرة: دار الشعب -د. ت-.
٧- مجموعة الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي الحنبلي -ط١- الرياض: مطابع الرياض -د. ت-.
٨- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن.
زاد المسير في علم التفسير -ط١- دمشق، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٦٤م.
٩- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، دراسة وتحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي -ط٢- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
١٠- الجوهري، إسماعيل بن حماد.
الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد

عبد الغفور عطار -ط٢- د. م-: (طبعة خاصة: حسن عباس الشربتلي)، ١٩٨٢م.
١١- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي.
فتح الباري شرح صحيح البخاري، ترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي، إخراج: محب الدين الخطيب -د. ط-بيروت: دار الفكر -د. ت-.
١٢- ابن حنبل، أحمد.
الرد على الزنادقة والجهمية، ضمن كتاب: عقائد السلف، علي سامي النشار (د)، عمار جمعي الطالبي -د. ط- الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧١م.
١٣- المسند -ط. ٢- بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٧٨م.
١٤- الدارمي، أبو سعيد عثمان بن سعيد.
الرد على الجهمية، ضمن كتاب: عقائد السلف، علي سامي النشار (د)، عمار جمعي الطالبي - د. ط- الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧١م.
١٥- الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن.
السنن، تحقيق وشرح وتعليق: مصطفى ديب البغا (د) -ط١- دمشق: دار القلم، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

١٦- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني.
السنن، دراسة وفهرسة: كمال يوسف الحدث -ط١- بيروت: دار الجنان، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
١٧- الديلمي، أبو منصور شهر دار بن شيرويه.
مسند الفردوس، ضمن (فردوس الأخبار لـ الديلمي، شيرويه بن شهر دار بن شيرويه) تحقيق وتقديم: فواز أحمد الزمرلي، محمد المعتصم بالله البغدادي -ط. ١- بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
١٨- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد.
المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني -د. ط- بيروت: دار المعرفة -د. ت-.
١٩- ابن رجب الحنبلي، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن شهاب الدين أحمد.
الذيل على طبقات الحنابلة -د. ط- بيروت: دار المعرفة - د. ت-.
٢٠- روا، أولفييه.
تجربة الإسلام السياسي، ترجمة: نصير مروة -ط. ١-

لندن: دار الساقي، ١٩٩٤م.
٢١- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني.
تاج العروس من جواهر القاموس -ط١- القاهرة: دار مكتبة الحياة، ١٣٠٦هـ.
٢٢- زغلول رغب النجار (أ. د).
أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية -ط٢- الرياض، واشنطن: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
٢٣- سارة بنت عبد المحسن بن جلوي آل سعود (د).
قضية العناية والمصادفة في الفكر الغربي المعاصر - دراسة نقدية في ضوء الإسلام -ط١- الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
٢٤- سفيان بن سالم دارمي.
الإسلام ومبادىء الأخلاق، مراجعة عبد الله بن إبراهيم الأنصاري -د. ط- قطر: إدارة إحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
٢٥- الشيرزي، عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر.
المنهج المسلوك في سياسة الملوك، تحقيق ودراسة: علي

عبدالله الموسى -ط١- الأردن: مكتبة المنار، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.
٢٦- صالح بن فوزان الفوزان (د).
شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية -ط٦- الرياض: مكتبة المعارف، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
٢٧- أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق (رضي الله عنهما).
المسند، تأليف: الحافظ جلال الدين السيوطي -ط١- بومباي: الدار السلفية، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
٢٨- عبد الحميد الصيد الزنتاني (د).
فلسفة التربية الإسلامية في القرآن والسنة -ط١- ليبيا، طرابلس: الدار العربية للكتاب، ١٩٩٣م.
٢٩- عبد الرحمن حبنكة الميداني (د).
الأخلاق الإسلامية وأسسها -ط٣- دمشق: دار القلم، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
٣٠- العقيدة الإسلامية وأسسها -ط٢- دمشق، بيروت: دار القلم، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
٣١- عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب

النجدي الحنبلي.

فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، تحقيق وتخريج: عبد القادر الأرناؤوط -ط١- بيروت، دمشق: مكتبة دار البيان، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٣٢- عبد الفتاح أبو غدة.

قيمة الزمن عند العلماء -ط٦- بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٣٣- عبد الله أحمد قادري الأهدل (د).

المسؤولية في الإسلام -ط٣- جدة: دار العميد للثقافة والنشر، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٣٤- عدنان علي رضا النحوي (د).

منهج المؤمنين بين العلم والتطبيق -ط٢- الرياض: دار النحوي، ١٣٩٨هـ- ١٩٨٨م.

٣٥- عماد الدين خليل (د).

رؤية إسلامية في قضايا معاصرة -ط١- قطر: وزارة الشؤون الإسلامية (كتاب الأمة)، ١٤١٦هـ -١٩٩٥م.

٣٦- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد.

إحيـاء علوم الدين -د. ط- القـاهرة: دار الشـعب -د. ت-.
٣٧- الفـيروز آبادي الشـيرازي، مجد الدين محمد بن يعقوب.
القـامـوس المحـيط -د. ط- بيـروت: عـالم الكتب -د. ت-.
٣٨- ابن قيم الجوزية، ابو عبدالله محمد بن أبي بكر.
إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي -ط١- بيروت: دار الكتاب العلمية، ١٩٨٧م.
٣٩- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي -د. ط- بيروت: دار الكتاب العلمية -د. ت-.
٤٠- الداء والدواء، تحقيق وتعليق: علي بن حسن بن علي ابن عبد الحميد الحلبي الأثري -ط١- الدمام: دار ابن الجوزي، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
٤١- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تحقيق وتعليق: علي بن محمد الدخيل الله (د) -ط٢- الرياض: دار العاصمة، ١٤١٢هـ.

٤٢- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق: محمد جميل غازي (د) -د. ط- جدة: مكتبة المدني ومطبعتها -د. ت-.

٤٣- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي -ط٢- بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٣م.

٤٤- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل.
تفسير القرآن العظيم -د. ط- بيروت: دار المعرفة، ١٩٦٩م.

٤٥- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني.
السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي -د. ط- بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٥م.

٤٦- الإمام مالك، أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي.
الموطأ، تعليق وتحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف -ط١-بيروت: دار القلم -د. ت-. طبعة أخرى: تقديم ومراجعة: فاروق سعد -ط١- بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩م.

٤٧- الماوردي، أبو الحسن علي بن حبيب البصري.

الأحكام السلطانية -د. ط- القاهرة: دار الفكر
-د. ت-.
٤٨- مجموعة من المؤلفين.
المعجم الوسيط -ط٢- قطر: إدارة إحياء التراث
الإسلامي، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م.
٤٩- محمد أمين الجامي (د).
الصفات الإلهية في الكتاب والسنة -ط١- المدينة
المنورة: الجامعة الإسلامية (المجلس العلمي، إحياء
التراث الإسلامي)، ١٤٠٨هـ.
٥٠- محمد الأمين الشنقيطي.
أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن -د. ط- (طبعة
خاصة على نفقة الأمير أحمد بن عبد العزيز)،
١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٥١- محمد أمين المصري.
المسؤولية -ط٣- الكويت: دار الأرقم، ١٤٠٣هـ-
١٩٨٣م.
٥٢- محمد بن صالح بن عثيمين.
رسائل في العقيدة -ط١- الرياض: دار طيبة،

١٤٠٤هـ-١٩٨٣م.
٥٣- محمد عبد الله دراز (د).
دستور الأخلاق في القرآن، تعريب وتحقيق وتعليق: عبد الصبور شاهين (د)، مراجعة: السيد محمد بدوي (د) -ط٣- بيروت، الكويت: مؤسسة الرسالة، دار البحوث العلمية، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
٥٤- من خلق القرآن، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري -د. ط- قطر: إدارة الشؤون الدينية، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٥٥- محمد الغزالي.
خلق المسلم -ط٣- دمشق، بيروت: دار القلم، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٥٦- مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري.
صحيح مسلم بشرح النووي -ط٣- بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨م.
٥٧- المقري الفيومي، أحمد بن محمد بن علي.
المصباح المنير في الشرح الكبير للرافعي -د. ط-

بيروت: المكتبة العلمية -د.ت-.
٥٨- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين.
لسان العرب -ط١- بيروت: دار صادر، ١٣٠٠هـ.
٥٩- موسى بن سليمان الدويش (د).
علو الله على خلقه -ط١- بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.
٦٠- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب.
السنن (صحيح سنن النسائي باختصار السند. محمد ناصر الدين الألباني، تعليق: زهير الشاويش) -ط١- بيروت: المكتب الإسلامي، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
٦١- يوسف القرضاوي (د).
الإيمان والحياة -ط٤- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٦٢- العبادة في الإسلام -ط٩- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
٦٣- ملامح المجتمع الذي ننشده -ط١- القاهرة: مكتبة وهبه، ١٤١٤هـ١٩٩٣م.

٦٤- الوقت في حياة المسلم-ط٢- بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

الفهرست

الموضوع	الصفحة
تقديم	٧
مقدمة	٩
تمهيد	١٥
الفصل الأول : المعية الإلهية	١٧
المبحث الأول : معنى المعية وأقسامها	١٩
المبحث الثاني : المعية العامة	٢٥
أولاً : الانحرافات النفسية	٣٠
ثانياً : الانحرافات العملية	٣٨
المبحث الثالث : المعية الخاصة	٥٥
المبحث الرابع : أسباب الخلل ومسبباته	٧٣
١ - البيت	٧٩
٢ - التعليم	٨٤
٣ - المجتمع	٩١
٤ - الإعلام	٩٨

الفصل الثانى : المسؤولية الإنسانية	١٠٣
المبحث الأول : أقسام المسؤولية وشروطها	١٠٩
المبحث الثاني : المسؤولية الشخصية	١١٩
القسم الأول : أعمال القلو ب	١٢١
القسم الثاني : أعمال الجوارح	١٤٠
القسم الثالث : مسؤولية العمر (الوقت)	١٤٧
القسم الرابع : حدود المسؤولية الشخصية	١٥٧
المبحث الثالث : المسؤولية الاجتماعية العامة	١٦٥
١ – المسؤولية الأسرية	١٦٨
٢ – مسؤولية الجماعة (المجتمع)	١٧١
٣ – مسؤولية ولاة الأمر (الحكام)	١٧٥
المبحث الرابع : المسؤولية بين الإفراط والتفريط	١٨٥
الفصل الثالث : علاقة المعية بالمسؤولية	١٩٥
المبحث الأول : الالتزام الداخلي (الضمير)	١٩٧
المبحث الثاني : منهاج الإسلام في تربية الضمير الأخلاقي (الإلزام الداخلي)	٢٠٧

الخاتمة ٢١٧
ثبت المراجع ٢٣٧
الفهرست ٢٥١

كتب للمؤلفة

١ - نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام.

٢- قضية العناية والمصادفة في الفكر الغربي المعاصر -دراسة نقدية في ضوء الإسلام-.

٣- المسلم المعاصر بين المعية والمسؤولية.

٤- السطحية وغياب الهدف.

٥- الثقافة الإسلامية ومدى تأثيرها في الفكر المعاصر.

٦- نشأة الكون وخلق الإنسان بين العلم والقرآن.

تصويبات

الصفحة	السطر	الكلمة الخطأ	الكلمة الصواب
١٧	الحاشية : ٢	ابن تيميه	ابن تيمية
٢١	حاشية : (١)	ابن تيميه	ابن تيمية
٢٤	قبل الأخير	ابن تيميه	ابن تيمية
٢٦	٦	(يعلم السر وأخفـ)	(يعلم السر وأخفى)
٢٨	١١	وهذه حقيقه يقينة	وهذه حقيقة يقينية
٢٩	حاشية : (١) س ٢	استبرأ البيئة	استبرأ لدينه
٢٩	حاشية : (١) س ٢	كتاب المسافاة	كتاب المساقاة
٢٩	حاشية : (٢)	فتيان حزاوره	فتيان حزاورة
٣٠	٣	يوحي ظاهرة	يوحي ظاهره
٣١	١	لحظات يأسة	لحظات يأسه
٤٠	١	عقديته	عقيدته
٤٠	١٠	في أداة	في أداء
٤٠	١٢	عن عزلة	من عزلة
٤٣	١١	أؤتمن	اؤتمن
٤٥	٩	ناقص الإيمان	الناقص الإيمان
٤٩	٦	وعمت	وعميت
٥٩	٦	عَبدوها ولم يصبدوها	عَبَدُوها ولم يُعبدوها
٦٦	١٠	الإتصال	الاتصال
٦٧	١٠	للإصطفاء	للاصطفاء
٦٧	١٥	البته	البتة
٧٠	١٤	ونقرنه أبنائنا	ونقرنه أبناءنا
٧١	٢	صلى الله وسلم عليه وسلم	صلى الله عليه وسلم
٧١	٣	لأبنائهم	لأبنائهم
٧١	٥	الإتّباع	الاتّباع
٧١	٩	والإستفادة	والاستفادة
٧١	١١	وقع	وقع
٧٢	٨	لا يقرءون	لا يقرأون
٧٢	١٠	هذا التساؤلات	هذه التساؤلات
٧٥	٨	جماء	عجماء
٧٦	١٠	المضطرد	المطّرد
٧٧	٤	لايبغى	لايبتغى
٨٦	١٢	المباشره	المباشرة
١٢٦	الحاشية	(٣)	(١)
١٢٧	الحاشية (٢)	أمارة مظنونه	أمارة مظنونة
١٤٧	الحاشية، س ٤	على مصراعيها	على مصاريعها
١٤٩	٥	وإنتهاء بالفكر	وانتهاء بالفكر
١٥٢	٤، ٦	فُصل	فصّل
١٥٧	٢، ١٦	بصفته عضو	بصفته عضواً
١٦٥	١٥	على سفينه	على سفينة
١٧١	٣	ولم يرض	ولم يُرْض
١٧١	٥، ٦	دعى على ...دعى لمن	دعا على ...دعالمن
١٧٤	٢	يستوي في وذلك	يستوي في ذلك
١٨٣	٨	ويوغل الصدور	ويوغر الصدور
١٨٤	١	حتى يرونه	حتى يَرَوْنه
١٨٤	١٦	على مصراعيها	على مصاريعها
٢٠٢	٥	أخوانه	إخوانه
٢٠٣	١	لايغب	لايغيب
٢١٠	١١	واجب انساني	واجباً إنسانياً
٢١٠	١١	التزام شرعي، وتحقيق	التزاماً شرعياً، وتحقيقاً
٢١١	١١	ويضح	ويضحي
٢١٢	١٠	ومنه هنا	ومن هنا
٢١٥	١	القضيه	القضية
٢٣٠	الحاشية (١)		سورة الرعد : ١١
٢٣١	رقم ٣	(السن)	السنن

هذا الكتاب

قال تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]

إن بداية طريق الإصلاح الاجتماعي هو الإحساس بالحاجة إلى التغيير، وهذا يعني الشعور بالمسؤولية نحو الواقع المعاش بكل معطياته، وتناقضاته. لكن مجرد الشعور بالمسؤولية وحده غير كاف، إذ لابد من ترجمة هذا الشعور إلى أعمال تصنع الواقع الجديد.

وفي زماننا هذا نجد الغالبية العظمى من شعوبنا في العالم الإسلامي تعيش حياة عدم المبالاة رغم كل ما يفرزه الواقع اليومي من مغالطات، وتناقضات كثيرة.

إن المسلم الغيور يحاول تلمس منهاج الإصلاح ليعيد للمجتمع الإسلامي شيئاً من العافية، ونظراً لضخامة هذه المهمة فإنه يستحضر ويستنزل معية الله لتسدده إلى الصواب، وتعينه على عقبات الطريق.

المؤلفة

ردمك: ٥-٤٥٤-٢٠-٩٩٦٠